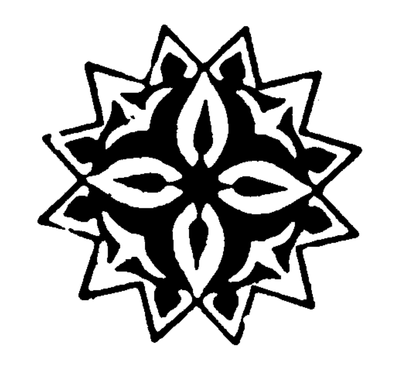
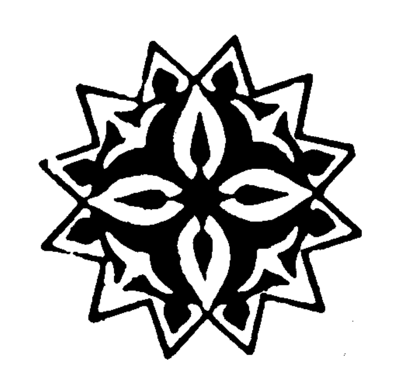
جامعة الفاتح
كلية التربية

في الثقافة الإسلامية

دكتور / محمد الدسوقي

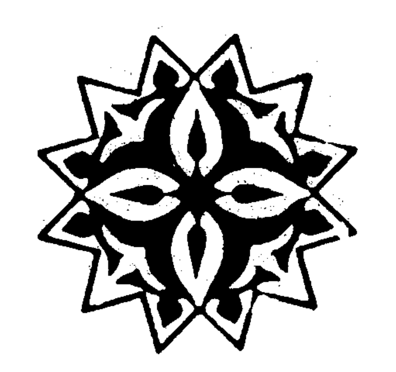


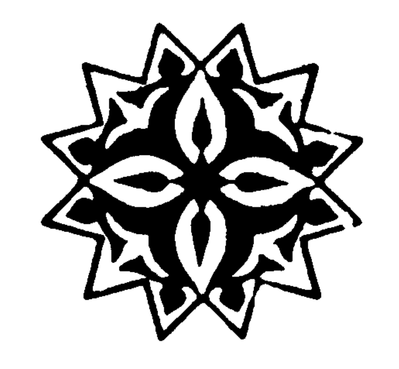


بسم الله الرحمن الرحيم

" وَأَنَّ هَـذا صِـراطي مُسـتَقِيمًا فَاتَّـبِعُوه وَلاتَتَّـبِعُوا السُّبلَ فَتَفَرّقَ بِكُم عَنْ سَبيله، ذلكم وَصَّـاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُون "

" صَدقَ الله العَظِيم "





مقـــدمة

الحمد لله الذى عـلم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم ، والصـــلاة والسلام على خاتم الرسل والأنبياء الذي بعثه ربه رحمة للعالمين سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آ له وصحابته ومن دعا بدعوته وأستمسك بشريعته الى يوم الدين .

وبعد فإن مهمة الدعوة الاسلامية تتمثل في اعادة تـكوين الشخصية الانسانية طوعا للقوانين الإلهية بعد أن ران على تلك الشخصية ظلام الشرك والجهالة والضلالة فأفقدها الوعي الصحيح بمركزها في الـكون ورسالتها في الحياة .

إن كل تعاليم الإسلام تتجه بالانسان نحو هدف واحد هو تقويه والحيلولة بينه وبين الانحراف في العقيدة والسلوك ليظل أهلا لخلافة الله في الأرض .

والذى يراجع تاريخ البشرية قبيل الإسلام وبعده بسنوات معدودات يدهش لهذا التغيير العجيب الذي حول أمة ممزقة وثنية لا يأبه العالم بها الي أمة جديدة في قيمها وقداسة وحدتها فأستطاعت بذلك أن تقود وتسود وأن تفتح أمام الناس كافة طريق العلم والحضارة .

ومرد ذلك الي مبادىء الدعوة الخاتمة التي صاغت الشخصية الانسانية صياغة جـديدة ، فأصبحت بتلك المبادىء رائـدة في كل مجـــال من مجالات الحياة الانسانية الكريمة .

أن الشخصية الانسانية فى ظل الاسلام وتعاليمه السمحاء أصبحت تتمتع بخصائص ومقومات عديدة جعلت منها شخصية ذات أصالة وتفرد بقيم ومثل سامية .

وأهم خصائص الشخصية الإسلامية عبوديتها لله وحده فهذه العبودية تحرر الانسان من كل أسباب المهانة والخوف والقلق وتغرس فيه الاباء والأنفة وملـكة المراقبة الدائمة

لله ، كما تغرس فيه معاني البسالة ومواجهة شدائد الحياة بارادة لاتلين وصبر لا يعرف الهوان .

ومن خصائص هذه الشخصية الايجابية ، وهي تعني أن يكون المسلم ذا أثر عملي مفيد فى حياته الخاصة والعامة وفي علاقته بالأفراد والجماعات ، فهو ايجابي دائما لايعرف السلبية أو النفاق ولا يعيش فى دائرة مغلقة ، لأنه يؤمن بأن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .

والشخصية الإسلامية الى هذا لاترضى بالدنية في دينها ودنياها ولا ترضى كذلك الا بالقمم الشامخة ، فهمتها وعزيمتها لاتقبل حياة السفح والوهاد ، وانما تنشد حياة النسور والعقبان حياة الأعمال الجليلة والانجازات الضخمة ، ولهذا تتسم تلك الشخصية بالنظرة الجادة والارادة القوية ، وتنفر كل النفور من توافه الأمور وتربأ بنفسها أن تعيش حياة الخمول والكسل والضعة .

وفضلا عن هذا كله تؤمن الشخصية الإسلامية بأن الوقت هو الحياة ، وأن كل إنسان مسئول عن عمره فيم أفناه ، وهى لذلك لا تضيع الوقت سدى أو هباء ، وانما تنفقه فى كل خير وبر .

تلك أهم خصائص الشخصية الإسلامية ، ويشهد التاريخ بأن هذه الشخصية — حين حافظت على خصائصها ومقوماتها وكانت في سلوكها صورة حية لها — حققت البطولات وفتحت الفتوحات ، لقد انتصرت فى كل المعارك وأثبتت وجودها في كل ميدان ، وكانت دائما متبوعة لا تابعة ، كانت تؤثر في غيرها ولا تذوب في سواها ، فلما أتي عليها حين من الدهر لم تحافظ على ما يجب أن تحافظ عليه من القيم والمقومات ، هان شأنها ، وذهب ريحها ، ولم تعد كما كانت قوة إيجابية مؤثرة تقود ولا تقاد .

وكان سبب ذلك جهلها بخصائصها وسماتها الذاتية ، وأنصرافها عن جوهر عقيدتها ، وأهتمامها بالقشور دون اللباب وأمتدت بهذه الشخصية عصور التخلف والجهل والظلم الاجتماعي حتي عدا عليها الاستعمار فزاد من بلائها ، ونكبتها ، وعمل جاهدا على أن يبين خصائصها وقيمها حجابا كثيفا من الاهمال والجهل حتى لاتعود كما

وكان لابد من أن يعمل الاستعمار مع هذا على أن تتجه تلك الشخصية نحو المفاهيم والقيم غير الاسلامية لتصبغ بصبغة جـــديدة قوامها الثقافة والعادات والتقاليد الاستعمارية لتظل على ولائها للاستعمار وقيمه وأن كانت من الناحية الشكلية تتمتع بالاستقلال والحرية ، وهذا هو الاستعمار المعنوي أو الفكري وهو أشد فتكا بكرامة الأمم من الاستعمار العسكري .

ونجح الاستعمار في الوطن العربي والإسلامى كله فيما خطط له الى حـــد كبير وساعده على ذلك بالاضافة الى تسلطه ، ولع المغلوب بتقليد الغالب واعتقاد طائفة من المسلمين والعرب – وهم الذين أسند اليهم الاستعمار الوظائف التنفيذية ، على حين كانت الوظائف القيادية في أيدي المستعمرين – بأن السير على مناهج الاستعمار في التعليم والاقتصاد والعادات والتقاليد هو الحل لأزمة التخلف التي عانت منها الشخصية الإسلامية كثيراً .

ونجم عن ذلك كله أضطراب فى المفاهيم الإسلامية بين المسلمين ونشأة أجيال لاتعرف عن تراثها وحضارتها شيئا ذا بال ، وسيطرة العادات الدخيلة على السلوك ومظاهر الحياة فضلا عن أزدواجية التفكير نتيجة لسياسة التعليم القائمة على الثنائية ووجود ما يسمى بالتعليم الديني والتعليم المدني وهو أمر يرفضه ديننا ، فذلك التقسيم في نظام التعـــليم منبثق عن نظرية الفصل بين الدين والدولة ، وهى نظرية لايعرفها الاسلام .

ازاء هذا الوضع الذى آلت اليه الشخصية الإسلامية بوجه عام بسبب الظروف والملابسات التي أومأت اليها ، كان لامناص من عمل يستهدف العلاج لتتحرر تلك الشخصية تحررا كاملا وتؤدي دورها الحضارى الانسانى فى عصر لا يقيم لغير القوة الآثمة وزنا .

فكان قرار مجلس قيادة الثورة في الجمهورية العربية الليبية بتدريس مادة الثقافة الإسلامية فى جميع الـكليات الجـــامعية ، وهو قرار لاريب فى حكمته وأهميته وجدواه .

وهذا الكتاب يتناول منهج السنة الأولى بجامعة الفاتح ، وقد توخيت فيه دراسة

الموضوعات في إيجاز واهتمام بالمبادىء العامة والقضايا الكلية دون اهتمام بالجزئيات والتفاصيل الفرعية ، وكل ما أطمع فيه أن يحقق الغاية منه ، فتكون دراسته باعثا على الاهتمام بكل ما يتصل بعقيدتنا وحضارتنا ، فيتحقق الأمل المنشود في بناء الشخصية الإسلامية بخصائصها الذاتية ومقوماتها الأصيلة .

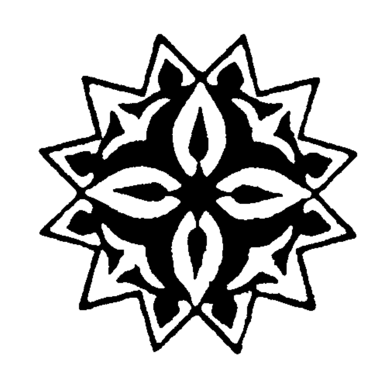
والله أسأل أن يتولى الجميع بهدايته وتوفيقه .

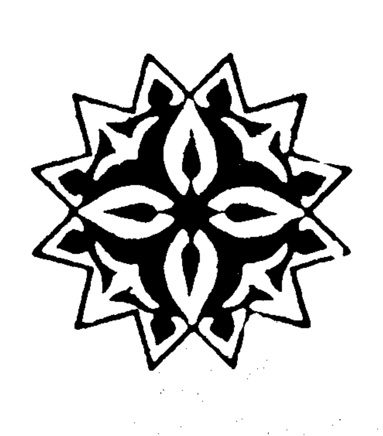
د. محمد الدسوقي
قسم اللغة العربية والدراسات الاسلامية
كلية التربية – جامعة الفاتح

*

« تمهيد »

العالم قبل الإسلام





العالم قبل الإسلام

مما لا خلاف عليه بين المؤرخين أن العالم قاطبة كان قبل الاسلام في حاجة ماسة الى من ينير له طريق الخير ويحول بينه وبين ماهو فيه من جهالة وضلالة.

لقد فقد المجتمع البشرى قبل الاسلام كل أسباب الأمن والاستقرار والحياة الكريمة ، فقد كان منطق الغابة سائداً بين الجميع ، وهجر الناس بوجه عام تعاليم الرسالات الالهية ، وانغمسوا فى الموبقات والشهوات واخلدوا الى أوثان مختلفة يقدسونها ويتقربون اليها.

الفرس والروم :

اذا كانت الفرس والروم اكبر دولتين فى العالم قبل الاسلام وكانت لكليهما حضارة عريقة فانهما قد أصيبا بحالة من الفوضى والفساد قبل بعثة محمد ﷺ ، ومرد ذلك الى الصراع الذى نشب بينهما واستمر عدة قرون من اجل السيطرة على العالم وسيادته ، بالاضافة الى الامراض المتباينة التى تفشت فيهما ، وهي امراض تفتك بالعقائد والقيم الانسانية الخالدة ، وحيث تصاب الامم فى عقائدها واخلاقها ، فانها تفقد أهم مقومات حياتها واستقلالها ويكون مآلها الانحلال والانهيار.

الحياة السياسية :

ففي دولة الفرس كان نظام الحكم استبداديا فرديا ، يقوم على الاعتقاد بنظرية الحق الالهي المقدس للملوك فعروقهم تجري فيها دماء مقدسة ، وهم من ثم طبقة خاصة يجب ان ينعموا بما لا ينعم به عامة الناس ، ومن ذلك مثلاً انه لايحق لفرد من الشعب أن يلبس قماشا يرتديه الملوك ، والحكام ، وهؤلاء ما كان يعنيهم إحقاق الحقوق واقامة العدالة بقدر ما يعنيهم جمع المال والاغراق في الترف والملذات ، وتدبير المكائد والدسائس للاستئثار بالسلطة والجلوس على العرش ، وحسبك ان احد عشر ملكا تعاقبوا على الحكم في مدة لاتزيد على خمس سنوات [1]

١ – انظر النظم الاسلامية الدكتور صبحي الصالح ص ٢٨ ط. الثانية.

وفي دولة الروم ، ومنذ صارت أمبراطورية فى عهد أغسطس سنة ٣١ ق.م أصبح نظام الحكم استبداديا أو ثيوقراطيا ، فالامبراطور حاكم مطلق ذو صفة الهية . ولذا ترفع الاباطرة على الشعب وارهقوهم بالضرائب ، وشغفوا بملذاتهم عن كل عمل يحقق لرعية الدولة السعادة والرفاهية (١) .

الحياة الاجتماعية :

ونجم عن الحكم الاستبدادي الفردى وتلك النظرة المقدسة الى الملوك والاباطرة ، وارهاق عامة الشعب بالضرائب المتنوعة – نجم عن هذا وغيره ، وجود طبقات اجتماعية متصارعة في كلتا الدولتين وان كانت في دولة الفرس اكثر عددا وأوضح صورة منها في دولة الروم ، ولكن الجدير بالذكر هنا ان الطبقة الكادحة ، وهي تمثل الأمة بوجه عام كانت تعيش حياة الفاقة والبؤس والحرمان ، وما كانت تجد من طبقة الحكام أو رجال الدين والادارة شيئا من العطف والاهتمام .

الحياة الدينيـة :

وكانت الفرس قديماً من الناحية الدينية تعبد آلهة شتى كالانهار والجبال والكواكب ، ثم حاول زردشت (٦٦٠ – ٥٨٣ ق.م) ان يجمع الفرس على ديانة واحدة ، فانتهى به تفكيره الى القول بالالهين : اله الخـــير واله الشر ، وكان مما روى عنه ان العالم مسرح يتصارع فوقه الخير والشر ، بيد ان هذا الصراع ينتهى بظهور الخير على الشر .

ولكن ما حاوله زردشت وانتهى اليه تفكيره ، تعرض بعد وفـــاته للتحريف والتبديل والاهمال ، وكان ان ظهرت عبادة النار بين الفرس غير أن الاسكندر المقدوني بعد غزوه بلاد الفرس فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد حطم بيوت النار ، وقضى على البقية الباقية من تعاليم زردشت ، تلك التعاليم التي ظهرت مرة اخرى بعد خمسة قرون في عهد الساسانيين ، ولكن فى صورة مشوهة لخدمة بعض الطبقات كالملوك ورجال الدين.

وقد عرف الفرس الى جانب تعاليم زردشت مذاهب أخرى ، اهمها مذهب ماني وذلك فى القرن الثالث الميلادى وهذا المذهب يقوم على الثنوية (٢) ، اى القول بأن صانع

١ – النظم الاسلامية ص ٢٢ .

٢ – الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادى تحقيق الشيخ محمد محيي الدين ص ٢٧١.

العالم اثنان: أحدهما فاعل الخير وهو نور، وثانيهما فاعل الشر وهو ظلمة، وهما قديمان، ومختلفان في النفس والصورة متضادان في الفعل والتدبير، ثم مذهب مزدك في أواخر القرن الخامس وهو مذهب يدعو الى الانحلال وتدهور الاخلاق، لانه يقوم على أساس الشيوعية في النساء والاموال.

واما دولة الروم فانها كانت تدين بالوثنية، ثم دخلتها المسيحية وانتشرت فيها فدبت المنازعات والخلافات بين اتباع المسيحية والوثنية، ولما كانت الدولة قد اتخذت المذهب الملكاني دينها الرسمي، فانها وقفت من الذين اعتنقوا المذهب اليعقوبي[1] موقفا يتسم بالقسوة وبخاصة في بعض الامم التي كانت خاضعة لها كمصر والشام فقد مارست الروم ضدهم الاضطهاد الديني في أبشع صورة، كالحرق بالنار أو الالقاء في اعماق البحار[2] يضاف الى هذا ما كان من صراع ونزاع بين الفرق المسيحية، وهو صراع تجاوز حدود الجدل الموضوعي إلى السخرية والتسفيه، وما كان الأباطرة يفعلون إزاء هذا الصراع غير نصرة بعض الفرق طوعا لأهوائهم، وميولهم.

ومن كل ما سلف يبدو واضحا ان الفرس والروم، وهما اكبر دولتين في العالم قبل ظهور الاسلام وكانت لهما السيادة على سائر الامم تقريبا، كانتا تعانيان من الناحية السياسية من كثرة الحروب بينهما، تلك الحروب التي اودت بقوة الغالب منهما والمغلوب[3] وأيضاً من حكم الفرد وطغيانه، وهذا الحكم لا يثمر غير الظلم الاجتماعي والفساد الخلقي.

وكانت الدولتان من الناحية الاجتماعية مسرحا للاضطراب وصراع الطبقات وإرهاق عامة الشعب بالضرائب الفادحة التي انهكت القوى واورثت الناس حياة الشقاء والحرمان.

أما الحياة الدينية في الدولتين فكانت تموج بالعقائد الفاسدة والخلافات والخصومات الحادة، والدعاوى والمذاهب المنحرفة، ولذا لم تكن تلك العقائد والمذاهب التي سادت فارس والروم محققة الحياة الآمنة والاخلاق الفاضلة، ولكنها على العكس كانت سبيلا للانحلال واداة تمكن الطغاة والمتجبرين من الامعان في الظلم والفسوق.

---

١ – انظر محاضرات في النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة ٢ – النظم الاسلامية ص ٢٧.
٣ – محمد المثل الكامل لمحمد جاد المولى ص ٦٥.

هذه لمحة موجزة عن دولتي الفرس والرم قبل مشرق النور فى مكة ومنها تتضح مدى الحاجة إلى رسالة هادية تنفذ من دياجير الجهالة والضلالة وتأخذ بيد الحائرين إلى سواء السبيل .

وكانت العرب الذين بعث منهم خاتم الأنبياء والمرسلين أشد الناس حاجة إلى الانقاذ والهداية ، فقد كانوا فى ظلمات بعضها فوق بعض ، كانوا يعبدون الأصنام والأوثان وياتون المنكرات ، ويثيرون الحروب والغارات لاتفه الأسباب ولذا أتسمت حياة العرب قبل الإسلام بطابع الاضطراب والتمزق والفساد .

حياة العرب السياسية :

كان العرب من الناحية السياسية قبائل بدوية لاتعرف الاستقرار والاطمئنان ، فهم لا يخضعون لسلطة عامة تتولى شئونهم وتسهر على أمنهم ، وإن كانت الحياة فى عواصم الجزيرة تختلف بعض الاختلاف عن حياة القبائل التى تقيم فى الصحراء ، وتنتجع الكلاء والماء ، ففي تلك العواصم كمكة والطائف ويثرب كانت الحياة تعرف بعض النظم كمجالس الشوري وإقامة الاحلاف التي تحمي الضعفاء وتنصر المظلومين (١) ولكن السمة العامة لسكان الجزيرة العربية قبل الإسلام هى الحياة القبلية بما تعنيه من انتماء الفرد لقبيلته قبل انتمائه لبلد ما ، أو منطقة ما وأيضاً بما تعنيه من اثارة والحروب والثارات والعصبية القبلية . التي كانت تجلب على تلك القبائل الشحناء والخصومة والشقاق ، وإن كانت السبب في إهتمام العرب بأنسابهم وحرصهم عليها أبلغ الحرص .

الحيـــاة الاجتماعية :

وأمة هذا شأنها تكون حياتها الاجتماعية بسيطة كل البساطة فالبدو يعيشون متنقلين فى أرجاء الصحراء سعياً وراء المـاء والمرعى أو للغزو ، أما الذين سكنوا المدن فكانت حياتهم تعرف الاستقرار إلى حـــد ما ، وكانوا يشتغلون بالتجارة أو الزراعة ، ويعتمدون فى غذائهم على التمور والألبان واللحوم والحبوب ، وكان الشرب والميسر والصيد من وسائل اللهو التى عرفوها .

ومع هذا التباين بين البدو والحضر كان المجتمع العربي يخضع لنظام الطبقات ،

---

١ – أنظر النظم الاسلامية ص ٤٦ .

وكانت درجة الحرية التي يتمتع بها الفرد هي أســـاس التقسيم الطبقي في الجاهلية ، وكانت طبقات المجتمع طوعا لهذا الأساس ثلاثة :

ا – الأحـــرار .

ب – الأرقـــاء .

حـ – المـــوالى .

وكانت طبقـة الأحرار تمثل السادة وكاملي الأهلية على حين كانت طبقة الأرقاء تمثل العبيد الذين لا أهلية لهم ولا أستقلال لشخصيتهم ، فهم ملك للأحرار يتصرفون فيهم كما يشاءون بالبيع والشراء أو المؤاجرة والهبة وللسيد أن يضرب الرقيق ويقتله ويمثل به .

وقـد عرف العرب الرق كما عرفته سائر الشعوب القديمة وكانت له عند العرب مصادرة المختلفة كالقمار وعجز المدين عن الوفاء بدينه والحروب ، بالاضافة إلى جلب الرقيق من أفريقيا وغيرها .

أما طبقـة الموالى فكانت أرفع درجة من الأرقاء ، والمولى عبد أعتقه سيده فأصبح له ما للأحرار وعليه ما عليهم ولكنه يظل مرتبطا بسيده القديم برابطه تسمي (الولاء) وهذه الرابطة تنشىء حقوقا على المولى قبل سيده ، منها أن سيده يرثه إذا مات غير مخلف وارثا ، وأن المولى يدفع الدية عن جريمة أرتكبها سيده ولم يستطع أقرباؤه القيام بها[٢] .

وإذا كانت المرأة نصف المجتمع فإنها في عصر ما قبـل الإسلام كانت عضوا عاملا مؤثرا في الحياة ، ومع هذا كانت ضحية لتقاليد ظالمة مهينة .

كانت تشارك في الحياة العامة فتخوض الحروب إلى جانب الرجل ، وتمارس التجارة

---

١ – حضارة العرب د. مصطفى الرافعي ص ٢٦ .

٢ – حضارة العرب ص ٣٠ .

وتقرض الشعر ولكنها كانت عرضة للسبي في الغزوات ، وعرضه للوأد ، وكما كان الرجل يعدد زوجاته كانت المرأة تعدد الازواج ، وكانت تشترط أحيانا أن يكون الطلاق بيدها ، فإذا رغبت في تطليق زوجها حولت فناء خبائها من جهة الى أخرى ، فإذا أفاق الرجل أو عاد من سفره أو رحلته ووجد الخباء قد تحول علم أن امرأته قد طلقته فيفارقها .

الحياة الدينية :

كانت الحياة الدينية للعرب قبل الإسلام مزاجا من الوثنية واليهودية والنصرانية بالإضافة الى الدهريين والحنفاء ، وإن كانت الوثنية أغلب وأشهر بين العرب .

لقد عبدت العرب الشمس والنجوم كما أتخذت الأصنام والأوثان آلهة ، وكانوا يتقربون إليها بالذبائح والقرابين ، ومع هذا كانوا يعتقدون أنها تقربهم الي الله زلفى ، ومن ثم أقاموها حول الكعبة .

أما اليهودية فقد عرفها العرب قبل الإسلام بعدة قرون وكان المؤمنون بها يقيمون فى بعض الواحات الخصبة ، وكانت أشهر قبائلهم بنوقينقاع وبنو النضير وبنو قريظة.

وقد تسربت النصرانية الى الجزيرة العربية فى القرن الرابع الميلادى عن طريق سوريا وشبه جزيرة سيناء ، وكان البيزنطيون هم حملة المسيحية الى العرب نظرا للروابط التي كانت تجمع بينهم ومن أهمها التجارة .

ولكن المسيحية واليهودية فى الجزيرة العربية كانتا أيضاً قد تعرضتا للآراء الفاسدة والمعتقدات الباطلة .

أما الحنفاء فهم فريق من العرب كانوا ينكرون الوثنية قبل الإسلام ، ومنهم من كان يعبد الله على دين سيدنا ابراهيم عليه السلام غير أن عدد هؤلاء كان قليلا .

وكان الدهريون – وهم الذين لا يؤمنون بوجود إله ، ويعتقدون أن مرور الأيام هو الذى يهلك الأنام - كان هؤلاء بعض العرب ، وقد جادلوا الرسول في قضية البعث وغيرها من القضايا المتعلقة بوجود الله ، وناقشهم القرآن وفند كل أباطيلهم .

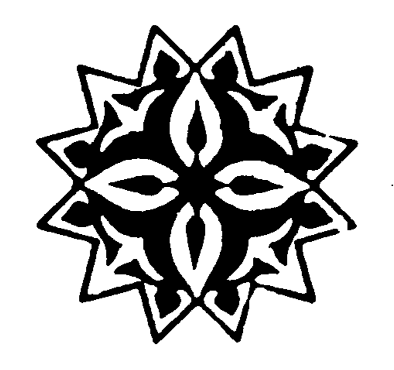
ومع وجود تلك النحل والمعتقدات بين العرب – كانت عبادة الأوثان أغلب عليهم ، ويروى أن هذه العبادة جاءتهم من بعض الأمم المجاورة لهم كما يروى أن أصلها يرجع إلى أن العربي الذى كان يقدس الكعبة ويطوف بها كان فى سفره يحمل معه قطعة من حجارة الكعبة ويتخذها رمزا لها فيطوف بها فى سفره ، وبمرور الأيام والسنين نسى العربي هذا المعنى وشكل الحجارة وآمن بها آلهة ووضعها حول الكعبة.

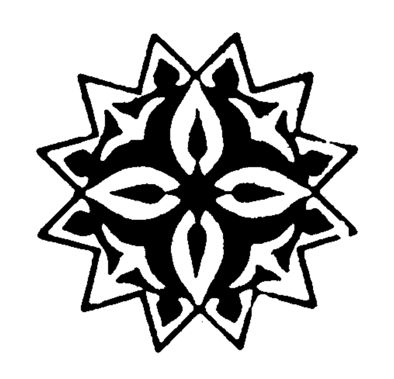
وسواء أكان هذا صحيحا أم ذاك فإن عبادة الأوثان بلامراء ضلال مبين .

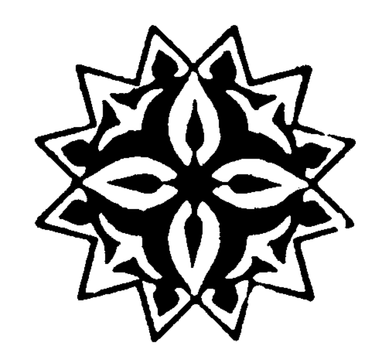
وجملة القول أن العالم قبل الإسلام كان يخيم عليه الظلام ، ظلام العقائد والمبادىء والعادات والأخلاق ، وكان فى أمس الحاجة إلى الفجر الذى يبدد الغياهب ويهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم حتى تستطيع البشرية مواصلة مسيرتها وأداء رسالتها على ظهر هذه الأرض كما أراد لها الله .

وأنبثق الفجر فى بطحاء مكة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله باذنه وسراجاً منيراً .

*



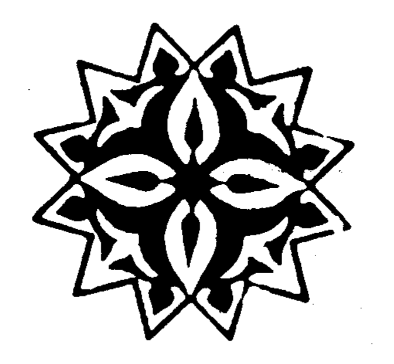




البــابُ الأول

١- الدّعوة الاســـــلامية
بَـين مكـة والمدينـة

٢- أســبابُ إنتشـا رالإسـلام.



الدّعوة الإسلاميّة
بين مكة والمدينة

محمد قبل البعثة :-

بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم برسالة الهدى ودين الحق على رأس الأربعين من عمره وكان عليه السلام قبيل بعثته قد حبب إليه الخلاء . فكان يذهب إلى غار حراء يتعبد فيه الليالى ذوات العدد ، كان يمعن فى التأمل والعبادة ، ويفكر فيما خلق الله بعيدا عن ضجة الناس وضوضاء الحياة ، ملتمسا الحق والحق وحده ، ولقد كان يشتد به التأمل ابتغاء الحقيقة ، حتى لقد كان ينسى نفسه وينسى طعامه ، وينسى كل مافى الحياة (١) .

أن محمداً بفطرته السليمة نفر كل النفور مما كان عليه قومه من عقائد وعادات ، والتمس في خلوته وتأملاته طريق الحق وسبيل الرشاد ، ومن ثم عاش عليه السلام قبل أن يوحى إليه دون أن يسجد لصنم أو يتقرب لوثن ، ودون أن يقترف منكرا من منكرات الجاهلية حتى أشتهر بين قومه بالخلق الكامل ، وصار مضرب المثل فى الصدق والأمانة ، ولا غرو فقد أعده الله ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين ، وليبلغ للناس كافة دعوة الله الخاتمة « الله أعلم حيث يجعل رسالته » (٢) « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبين » (٣) .

الدعوة إلى الله :

وإذا كانت أوائل سورة العلق أول ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم فى الغار فان سورتى المزمل والمدثر من أوائل مانزل بعد تلك السورة ، وفى مستهل هاتين السورتين حديث عن أمانة الدعوة إلى الله ، وما يجب أن يكون عليه الداعى حق

---

١ - حياة محمد لمحمد حسنين هيكل ص ١٣٠ ط التاسعة .

٢ - الآية ١٢٤ في سورة الانعام .

٣ - الآية ٤٠ في سورة الاحزاب .

يستطيع أن يؤدى الأمانة كاملة ففى سورة المزمل يقول الله تبارك وتعالى : « يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو أنقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ، إنّا سنلقى عليك قولا ثقيلا ».

ففى هذه الآيات يخاطب الله رسوله الكريم بأن يترك هذا التزمل (١) والتلفف ، ويعد نفسه للقيام بمهمة جليلة ثقيلة تحتاج إلى جهاد متصل وعزيمة لاتعرف الخور ، ونفس لايتطرق إليها القنوط ، وإرادة تزيدها الشدائد قوة ومضاء ، وصبر على مايناله من الأذى ويتعرض له من الاساءة والعنت ، وهذا الاعداد يتمثل فى اللجوء إلى الله وأخلاص العبودية له بقيام الليل وترتيل القرآن « إن ناشئة الليل هى أشد وطئا وأقوم قيلا إن لك في النهار سبحا طويلا » أى أن تقلبك فى النهار واشتغالك بمهمات الدعوة المقدسة سيساعدك عليه قيام الليل ودراسة القرآن .

وتأمر الآيات بعد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يذكر ربه ويدعو إليه وينقطع لهذه الدعوة ، وأن يصبر ويتحمل مايلقى من قومه ولا يقابل أذاهم بمثله « وأذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا . رب المشرق والمغرب لا اله إلا هو فاتخذه وكيلا . وأصبر على مايقولون وأهجرهم هجراً جميلا » والهجر هنا لايعنى قطع صلته بهم والنأى عنهم فقد بعث إليهم ولابد من أن يدعوهم الى ما أمر بتبليغه ، وهم سيعارضونه لامحالة وينقولون عليه الأقاويل فعليه أن يصبر ويتجلد ، ويعرض أعراضا جميلا ، يغضى عن الإساءة ، ويكون الاحسان ردا عليها .

وفي مستهل سورة المدثر تخاطب الرسول هذه الآيات :
« يا أيها المدثر، قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فأهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فأصبر ».

والآية الأولى توجيه للرسول صلى الله عليه وسلم الى تكبير ربه. فهو وحده الكبير الذي يستحق التكبير ، وهو توجيه للرسول ليواجه نذارة البشرية ومتاعبها وأثقالها بهذا التكبير الذى يتضاءل الى جانبه كل كيد ومكر .

---

١ — يروى أن الرسول صلي الله عليه وسلم بعد أن عاد من غار حراء وهو يرجف فؤاده طلب من زوجته السيدة خديجة رضي‌الله عنها أن تلفه بالثياب قائلا لها: زملونى زملونى « وكأنه آراد الاستخفاء عن الملك الذى هبط عليه في الغار » (وأنظر تفسير جزء تبارك للمرحوم الشيخ عبد القادر المغربي ص ١٧١) .

أما الآية الثانية فدعوة الى تحرير النفس وطهارتها من الأدران « وثيابك فطهر » وهذا التعبير فى الاستعمال العربي كناية عن طهارة القلب والخلق والعمل ، طهارة الذات التى تحويها الثياب .

وتنص الآية الثالثة على هجر الرجز ، وهو فى أصل معناه العذاب ثم كثر استعماله فى كل ما أوجب العذاب وأدى إليه من المعاصى والآثام .

وليس معنى أمر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بتحرير عقله ونفسه وبدنه انه كان قد أصابه شىء من دنس الجاهلية ، فقد ثبت بالنقل المتواتر الذى لا ريب فيه أنه عليه السلام كان كاملا فى عقيدته ، هاجراً للشرك ، كاملا في نفسه ، فلم يتلوث بخلق ذميم ، كاملا فى جوارحه ، فلم يقترف معصية قط .

إذا كان الأمر كذلك فماذا يعنى هذا التوجيه للرسول ؟ انه يعني طلب الدوام على ما هو عليه وتذكيره بأنه صلى الله عليه وسلم مزود من طهارة عقله ونفسه وجوارحه بما يساعده على القيام برسالته ، فضلا عن أن هذا التوجيه يعنى كذلك بداية عهد جديد فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم (١) .

ثم تتحدث الآيتان التاليتان عن صفتين هما أشد ما يلزم القائم بالدعوة ، أية دعوة كانت ، وهما : الجود والصبر ، فلا يمكن أن ينجح داع فى دعوته وهو ممسك شحيح ، كما لا يمكن أن ينجح فيها إذا كان مملولاً جزوعاً لا يستشعر الصبر والدأب والإلحاح « ولا تمنن تستكثر » أى لا تعط وانت مقدر فى نفسك أن ما تعطيه كثير ، والإعطاء هنا يشمل انفاق المال والجهد في سخاء .

« ولربك فاصبر » انها الوصية التي تتكرر عند كل تكليف بهذه الدعوة ، إن الصبر هو الزاد الأصيل فى معركة الدعوة الى الله ، وهى معركة عنيفة طويلة لا زاد لها إلا الصبر الذي يقصد به وجه الله ، ويتجه به إليه احتساباً عنده وحده « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » (٢) .

---

١ — أنظر الهجرة في القرآن للمؤلف ص ١٦٦ .

٢ — الآية ٣٥ في سورة الاحقاف .

وبهذه التوجيهات والمباديء المقدسة صدع محمد صلى الله عليه وسلم بأمر ربه وجاهد في سبيل تبليغ رسالته ، رسالة الحياة التى تؤمن بالله الواحد الأحد ولا تشرك به شيئاً ، ووقف الكفر كله ببطشه وغطرسته يحاول أن يمنع محمداً صلى الله عليه وسلم مما يريد ، غير أنه باء بالخزي والخسران وأصبحت كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

موقف الجاهلية من الدعوة الجديدة :

لم يترك الكفر وسيلة من وسائل الاضطهاد والأذى إلا سلكها ، كما انه لم يدع وسيلة من وسائل الإغراء إلا أخذ بها ، وفى كلتا الحالتين واجه الرسول والذين معه كل ما اقدمت عليه الجاهلية بالصبر الجميل ، والثبات الذي لا يتزعزع ولا يلين والأمل المشرق بنصر الله المبين .

لقد ظنت الجاهلية يوماً أن محمداً يسعى من وراء ما يدعو إليه الى ملك أو جاه أو شهوة من شهوات الحياة ، فسعت الى عمه تعرض عليه أن يكف محمد عن سب آلهتها وتسفيه أحلامها وتملكه عليها إن أراد ، أو تجمع له المال الوفير وتكفل له المتعة التى ينشدها ، أو تحضر له من يعالجه مما به من وساوس الشياطين ، وما كاد أبو طالب يفضي الى ابن أخيه بما تحدث به زعماء الجاهلية فى مكة حتى قال قولته الخالدة : « والله يا عم لو وضعوا الشمس في يمنى والقمر فى يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته (١) .

هذا الرد الحاسم الذى لم تتوقعه قريش هز وجدانها هزة لم تتماسك بعدها أبداً – انه الإيمان – القوة التى لا يغلبها شيء فى الأرض متى استقرت في وجدان الإنسان .

وفي يوم آخر اتخذت قريش قراراً جائراً – بعد أن راعها أن انصار الإسلام يزدادون يوماً بعد يوم دون أن تجدي محاولاتها المحمومة شيئاً ، وكان هذا القرار يقوم على مقاطعة كاملة لبنى هاشم وبنى المطلب جميعاً من آمن بمحمد ومن لم يؤمن به مادام غير ضالع مع أعداء محمد فى حربه ، وكتب هذا القرار الظالم في صحيفة وعلقت في جوف الكعبة ، وكان ذلك فى سنة سبع من المبعث .

---

١ – أنظر سيرة ابن هشام .

وعاش النبي واتباعه وأهله فى الشعب محصورين لا يبايعهم أحد ولا يخالطهم أو يتزوج منهم أو يزوجهم نحو ثلاث سنوات قاسوا فيها من هذه المقاطعة ما قاسوا ، وكانت أصوات الصبية تسمع من وراء الشعب بسبب الجوع والفاقة ، وما نالت هذه المقاطعة من القلوب المؤمنة وإن كانت قد تركت آثارها على الأبشار المتغضنة والجسوم الهزيلة .

وفى السنة العاشرة توفي أبو طالب والسيدة خديجة رضى الله عنها ، وحزن الرسول لموتهما حزناً شديداً ، حتى سمى العام الذى ماتا فيه بعام الحزن ، وبعد وفاة عم الرسول وزوجته اشتد أذى قريش عليه حتي ضاق ذرعاً بمكة وكاد ييأس من أهلها فخرج الى الطائف يبحث عن قلوب تؤمن بدعوته ، ولكن أشراف ثقيف سخروا من الرسول وهزئوا به ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويحصبونه بالحجارة ويطاردونه حتى وجد نفسه أخيراً يدخل بستاناً فانصرف عنه هؤلاء السفهاء بعد أن أدموه وأرهقوه كل إرهاق . ولم يستطع الرسول أن يدخل مكة بعد رحلة الطائف إلا في جوار بعض أهلها وكانت الجاهلية قد اهتبلت تلك الأحداث التي ألمت بالرسول فأدخلت على قلبه الحزن الشديد وأخذت تصب العذاب على كل من آمن به وتفكر جدياً فى قتله ، وقد تحول هذا التفكير الى خطة تجعل الدم الزكي مفرقاً بين القبائل حين رأت الجاهلية أن الإسلام وجد له فى يثرب أنصاراً يحمونه ويذودون عنه ، ولكن الله العلى القدير حفظ نبيه من مكر الجاهلية « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » (١) .

وهكذا عاش محمد صلي الله عليه وسلم فى مكة ثلاثة عشر عاماً يصارع الشرك والوثنية ، ما لانت له قناة ، ولا ضجر مما تعرض له وكان أبداً صورة وضيئة للمجاهد الصابر ، والداعية المثابر ، والمؤمن الذى لا يخشى الا الله .

غاية الدعوة في مكة :

لقد كانت مهمة الرسول فى مكة تنحصر فى تحرير العقل الإنساني من أسار الشرك وضلال الوثنية ، فما هذه الآلهة التى يصنعها الإنسان ثم يحنو لها من دون الله ، وما تلك المعتقدات الفاسدة كالاستقسام بالأزلام ، وزجر الطير وغيرها مما يأباه العقل السليم ؟ .

---

١ - الآية ٥٤ في سورة آل عمران .

أن كرامة الإنسان وقيمته فى هذا الكون تكمن فيما انعم الله به عليه من نعم شق فى مقدمتها العقل والتفكير ، فإذا ألغى الإنسان عقله واستسلم للأوهام والخرافات والعبادات المنحرفة فقد اضاع كرامته ، ومنزلته وأمسى كالأنعام أو اضل سبيلا ، ولذا كانت دعوات الأنبياء لعلاج انحراف الإنسان وضلاله عن سواء السبيل ، وكانت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم خاتمة الدعوات ، وجاءت لتنقذ الإنسان مما ارتكس فيه من ظلام الجاهلية ولتنير عقله وقلبه بنور الحقيقة الساطع ليظل أهلا للكرامة وخلافة الله فى الأرض .

أن ما نزل من القرآن الكريم فى الفترة المكية اكثر من نصفه بقليل وهذا القدر من الكتاب العزيز لم يشتمل على تشريعات وفرائض اللهم الا الصلاة التى فرضت ليلة الإسراء والمعراج وانما كان كل ما نزل يخاطب العقل الإنساني ويحضه على النظر والتفكير ليختار ما هو أولى به وأجدر ، وذلك لأن التشريعات لا جدوى منها الا بعد الإيمان بالحقيقة الازلية الأبدية حقيقة الوحدانية التي دعا اليها كل الرسل والأنبياء . بالاضافة الى أن التشريعات لا تحيا الا فى مجتمع يلتزم بها ولهذا المجتمع سلطة تحمي تلك التشريعات وتشرف على تنفيذها وبخاصة مايتصل منها بشئون الحياة اليومية والعلاقات الاجتماعية بين الناس ، وما كان المسلمون فيمكة يمثلون مجتمعاً اسلامياً ، فهم عددقليل بالنسبة لسائر اهل هذه المدينة ، وكانوا عرضة دائماً للاذى والاضطهاد ، فلا يتمتعون بالأمن والحرية والاستقرار .

لقد خاطب القرآن العقل الإنساني خطاباً منطقياً ، فبين له ان هذه المعبودات الصماء التي يشكلها الناس بأيديهم ليست جديرة بأن تتخذ آلهة ، لأنه لا قدرة لها على شيء « قال اتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون » (١) « واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاًولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا » (٢) « ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون » (٣) .

---

١ – الآية ٩٥ ، ٩٦ في سورة الصافات .

٢ – الآية ٣ في سورة الفرقان .

٣ – الآية ٧٣ في سورة النحل .

« واذكر فى الكتاب ابراهيم أنه كان صديقا نبيا ، إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لايسمع ولايبصر ولايغنى عنك شيئا » (١) وكما خاطب القرآن العقل الانسانى خطابا منطقيا حول هذه المعبودات من الأوثان والأصنام وغيرها ، خاطبه مبينا له أن هذا الكون بما فيه من مخلوقات شتي لايحصيها إلا بارئها ، يخضع لنواميس دقيقة وقوانين ثابته تشهد بأن لهذا الكون إلها حكيما قديرا مدبرا هو وحده صاحب الحول والطول، وإليه الأمر كله ليس كمثله شيء ، فهو المعبود بحق ولا معبود سواه .

« وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون» (٢) .

« وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » (٣) .

« ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً وخلقناكم أزواجاً وجعلنا نومكم سباتاً ، وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ، وجعلنا سراجاً وهاجاً ، وأنزلنا من المعصرات ماءاً ثجاجاً لنخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافاً » (٤) .

وبددت هذه الآيات وأمثالها ظلمات الأوهام والخرافات وأيقظت لدى الانسان حاسة الادراك الواعي والتفكير السديد ، فآمن بالاسلام من آمن دون اكتراث بما تصبه الجاهلية من عذاب على هؤلاء المؤمنين ، فقد أصبحوا بايمانهم قوة غلابة لاتقهر ، ولا تقيم لوشائج الدم وزنا مادامت لا تذعن لأمر الله وطاعة نبيه ولهذا كان المؤمنون فى مكة على قلة عددهم وكثرة عدوهم وطغيانه عليهم لايلجأون إلى أهليهم وذوى قرابتهم لحمايتهم ، وكذلك كانوا ينأون عن آبائهم وأخوانهم ما دام هؤلاء قد ظلوا على وثنيتهم وضلالهم ، فالإيمان أعز من كل شيء ، أنه يمنح الانسان قوة رائعة

١ – الآية ٤١ ، ٤٢ في سورة مريم .

٢ – الآية : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ في سورة الذاريات .

٣ – الآية ٣٧ ، ٤٠ في سورة يس .

٤ – الآية : ٦ ، ١٦ في سورة النبأ .

من الجهاد والثبات ، والقيم المقدسة فى القول والعمل ، وبذلك يصبح محور كل تصرفاته خشية الله ورضوانه ، فهو من ثم لايعمل عملا إلا ابتغاء وجه الله .

لقد حول الإسلام الطاقات التي انحرفت فى الجاهلية فقدست الحجارة وأستمرأت حياة الانحلال والمنكرات الى طاقات جديدة ذات مثل عليا وأهداف نبيلة وأخلاق كريمة ، طاقات كانت اللبنات الأولى فى صرح المجتمع الإسلامى الذى قاد البشرية إلى طريق الحياة الانسانية الكريمة .

وكان محمد صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة لهذه الطاقات التي لم يكن للبشرية عهد بها من قبل ، كان يسدد خطاها ، ويشد من أزرها ويمدها بكل ما يدفع عنها غوائل الجاهليه ، ويحفظ عليها يقينها راسخا خالصا من شوائب الوهن والارتياب .

وإذا كان الإسلام في الفترة المكية لم يتمكن من إقامة المجتمع الإسلامي ويحقق انتصارا ساحقا على دولة الشرك فيكفى أنه فى هذه الفترة قد أرسى المبادىء التى غيرت مجرى التاريخ ، وأن الذين عمر الإسلام قلوبهم كانوا صورة حية فريدة للإيمان الكامل وكانوا لمن بعدهم مثـــلا أعلى فهم نماذج رائعة تحتذى ، ويستهدى طريقها فى اليقين والفداء .

بدء الهجرة :

وحين بدا للجاهلية أن كل ما أقدمت عليه لم يجد شيئا ، وأن الإسلام قد وجد أنصارا له في يثرب انطلقت مسعورة تسرف في إجرامها وحاولت منع المؤمنين من الهجرة وكان هؤلاء يتسللون خفية حرصا على أن يهيئوا لعقيدتهم البيئة الآمنة الصالحة ، فما كان الواحد منهم يحرص على شيء حرصه على نصرة دينه والتمكين له ، لقد تخلوا عن الأموال والديار وفروا بعقيدتهم من الطغيان .

مؤامرة قريش :

وخافت الجاهلية أن يلحق محمد بأتباعه في يثرب ، فقد كانت تدرك أنه إذا هاجر فإنه لن يستقر فى مهجره دون أن يعد عدته ليغير على قريش ويدخل مكة فاتحا محطما

لأوثانها وأصنامها ، ومن هنا كان اسراعها لتأتمر في ناديها من أجل الفتك بالرسول حتى لا يلحق باتباعه ويتحقق ما راودها من الهواجس والمخاوف ، ولتضع حدا لهذا الداعية الذى أفسد عليها حياتها ، وسخر من معتقداتها وأحلامها ، ولـكن باء الشر بالعار والخزى ، ونجى الله نبيه من مكر الجاهلية ليكمل الدين وتتم النعمة « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الـكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (١) .

قيام الدولة في المدينة :

وبهجرة المسلمين الى يثرب – التي أطلق عليها المدينة بعد الهجرة – بدأ بناء الدولة الإسلامية ، وليس صحيحا أن هذه الدولة بدأت قبل الهجرة فى بيعتى العقبة الأولى والثانية ، فهاتان البيعتان مقدمتان كسائر المقدمات التي مهدت للهجرة ، وسبقت بناء الدولة فى المدينة (٢) .

الاسلام بين مكة والمدينة :

كان الإسلام فى مكة مضطهدا مطاردا فلما انتقل الى المدينة أصبح فى مأمن من هذا كله وإن كان لم يسلم من غدر المنافقين وخداع اليهود والحاقدين .

والذى يستنبه النظر أن الفترة المدنية ليست زمنيا كالفترة المكية ، فهى نحو عشر سنوات ، ومع هذا تحقق فيها من الأعمال ما يدهش الألباب ويحير العقول ويجعلها تقف مذهولة أمام المنجزات الضخمة التى تمت فى فترة وجيزة وكانت المنارة الهادية فى بناء الأمم وقيام الحضارات .

فى الفترة المدنية نزلت كل التشريعـات والفرائض من صيام وحج وزكاة وبيـان للحلال والحرام وتنظيم لشئون الأسرة وعلاج لمشـكلات الأمة ، كما فرض الجهاد المسلح وخاض المسلمون معارك عديدة بحيث يمكن القول بأنه فى كل عام كانت تقع غزوة أو سرية ، وفى هذه الفترة انتشر الإسلام في الجزيرة كلها تقريباً ، وأرسل محمد صلى الله عليه وسلم رسله الى الملوك والحـكام يدعوهم الى الدخول فى دين الله ، وترك عبادة ما سواه .

---

١ – الآية ٣٢ ، ٣٣ في سورة التوبة .

٢ – انظر النظم الاسلامية ص ٦٠ .

مجتمع المدينة وقيادة الرسول :

فإذا عرفنا أن المدينة بعد الهجرة كان سكانها متنافرين من حيث التركيب الاجتماعي ، فقد كان يقيم بها المسلمون من المهاجرين والأنصار ، كما كان يقيم بها اليهود والمشركون بالاضافة الى المنافقين ، ومن شأن هذا المجتمع الذى يضم ألوانا متباينة من العقائد والاخلاق أن تكثر فيه المشكلات والخلافات والمؤامرات – إذا عرفنا هـذا أدركنا كيف استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقـود المجتمع المتنـافر ويجنبـه العثرات وينتزع من طريقـه الأشواك ويجعل منـه المجتمع الرائد فى حيـاة المسلمين ، ولا عجب فقد كان عليه الصلاة والسلام حاكما عادلا وسياسيا خبـيرا وقائدا شجـاعا وفوق كل ذلك رسولا هاديا .

اسس بناء الدولة في المدينة :

أما الأسس التي قامت عليها دولة الإسلام بعد الهجرة فيمكن تقسيمها قسمين :

أ -- القسم التشريعى .

ب – القسم التنظيمى السياسى .

ويشمل القسم الأول كل ما فرضـه الله تبـارك وتعالى فى الكتاب العزيز وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم قولا أو عملا أو تقريراً .

وهذا القسم يمثل الجانب النظرى فى بناء الدولة ، اذ يقوم على تقرير التشريعات ووضع القيود والحدود التي يجب على الأمة ان تسير عليها ولا تحيد عنهـا لتكون دولة قائدة تحمى الحق والعدالة ، وتناهض الظلم والباطل .

وهذه التشريعات والفرائض لم تنزل جملة واحده ، بل نزلت رحمة وبالتدريج في بعضها ، واستمر نزولها الى قبيل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك فى حجة الوداع ، فقد نزلت فيها الآية الكريمة « اليوم اكملت لـكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لـكم الاسلام دينا » (١) .

---

١ – الآية ٣ في سورة المائدة وانظر التعريف بالقرآن والحديث للمرحوم الشيخ محمد الزفزاف ض ٦٥ ط أولى .

وا كمال الدين واتمامه يعنى اتمـام التشريع والفرائض ولا يعنى أن هـذه الآية هى آخر ما نزل من القرآن الكريم وان ذهب الى هذا بعض العلماء .

والحديث عن هذا القسم فى تفصيل وشمول يحتاج الى دراسة مستقلة ، وسيتناول هـذا الكتاب في جزئيه دراسة بعض التشريعات وبخاصة ما يتصل منها بالاسرة والنظام السياسى والاقتصادي . ولكن الذي تجب الاشارة اليه هنا ما فرضه الاسلام من فرائض وقرره من مباديء تمثل كلها وحدة مترابطة لاتعـرف الانفصـام فى حيـاة المسلم ، فهو يأخذ نفسه بها جميعها دون تفرقة بين مايسمى بعبادات ومعاملات .

وأما القسم الثاني ، وهو الخاص بالجانب التنظيمى السياسى فهو يشمل كل مافعله الرسول عقب الهجرة وبعدها يقصد كفالة الحياة المستقرة للمسلمين فى المدينة ، وكذلك كفالة كل مايحقق للاسلام القوة والنصر ولأعدائه الضعف والهزيمة .

وهذا القسم يعكس عبقرية الرسول صلى الله عليه وسلم في مختلف ميادين الحيـاة ، ويؤكد ما أومأت اليه آنفا من قدرته الفائقة على القيادة ، وتمتعه بأكمل الصفات فى شتى المجالات .

وما قام به الرسول صلى الله عليه وسلم يمكن أن يندرج تحت ما يلى :

أولا : بنـــاء المسجـــد .

ثانيا : المعاهـــدة .

ثالثا : المؤاخـــاة .

رابعا : بناء القوة العسكرية .

بنـاء المسجد :

كان أول عمل قام به الرسول صلى الله عليه وسلم فور وصوله يثرب بناء المسجد فى المكان الذي بركت فيه ناقته القسواء ، وقـــد أسهم الرسول عليه الصلاة والسلام بنفسه فى العمل مع المسلمين ، ولما رآه هـؤلاء بينهم يحمل الحجارة كما يحملون ، ضاعفوا من نشاطهم وأخذوا يرددون :

ولم يكن بناء ليكون مكانا لإقامة الصلوت فحسب ، ولكنه الى هـذا يمثـل الركيزة الأساسية في بناء المجتمع الاسلامى ، فهذا المجتمع لاقوام له الا بما شرعه الله من تعاليم ، والمسجد يرمز الى هذه التعاليم جميعها ، ومن ثم كان تشييد المسجد أول عمل قام به الرسول صلى الله عليه وسلم ليكون للمسلمين أبدا النـور الذى يهديهم الى خـير الدنيا والآخرة ،ويرشد الأمة بهذا الى أنها ما دامت تعمر بيـوت الله وتصوغ حياتها وفقاً لشرع الله الذى يمثله المسجد ، فهى خير أمـة أخرجت للنـاس وان هي أهملت تلك البيوت ، ولم تتخذها مصادر للتوجيـه والارشاد والتشريـع والسياسة فلن تكون خير أمة ، ولن تبلغ ما تنشده من القوة والعزة والحياة الكريمة .

وظل المسجد يمثـل في المجتمع الاسـلامي مصدر الطاعـات والقربات والأحـكام والتشريعات الى أن أتى على هذا المجتمع حين من الدهر تخلى فيه من العناية بالمسجد لا من حيث البناء ولكن من حيث الالتزام بمـا يرمز اليـه من الاعتصام بالاسلام ، فأصابه ما أصابه من الضعف والتخلف ، ولن يصبح المسلمون خير أمـة إلا إذا عاد للمسجد ما كان له فى الماضى من الهيمنة على الحياة في مختلف جوانبها وشئونها .

المعاهـــــدة :

لمـا كان مجتمع المدينة متنافرا من حيث التركيب الاجتماعي ، كما أومأت الى هذا فيما سبق ، فقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على القضاء على هذا التنافر فى محاولة لصهر الجميع فى بوتقة الاسلام ، وليتاح لكتائب الاسلام الأولى أن تنطلق من المدينة لتبليغ رسالة الله ولتنقذ الضعفاء من تسلط المتجبرين والقاسين .

وكانت المعاهدة التي عقدها الرسول صلى الله عليه وسلم بين المسلمين واليهود من أبرز الأعمال التى قام بها في سبيل تلك الغاية ، فاليهود أهـل كتاب ، وهم أقرب الى الدعوة الجديدة من الوثنيين والمشركين ولن يكونوا حربا على هـذه الدعوة إن أبوا الدخول فيها والذود عنها .

وهذه المعاهدة أو الصحيفة أو الكتاب ، فقد سميت الوثيقة التي حوت ما شرطه الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود أو عليهم بهذه الأسماء رويت كما يلي :-

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم : أنهم أمة واحدة من دون الناس المهاجرون من قريش على رِبعتهم[1] يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم[2] بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم[3] الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلهم معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وأن المؤمنين لايتركون مفرحا[4] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل ، وأن لايحالف مؤمن مولى من مؤمن دونه ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[5] ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم ، ولايقتل مؤمن مؤمنا في كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة[6]

---

١ — الربعة : الحال التي جاء الاسلام وهم عليها .

٢ — العاني : الأسير .

٣ — المعاقل : الديات .

٤ — المفرح : المثقل بالدين .

٥ — الدسيعة العظيمة .

٦ — أي المساواة في المعاملة .

غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وان سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتـــال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضهم بعضاً ، وأن المؤمنين يبيء[1] بعضهم عن بعض بمانال دماءهم في سبيل الله ، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه ، وانه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وأنه من اعتبط[2] مؤمناً قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول ، وأن المؤمنين عليه كافة ، ولايحل لهم إلا قيام عليه ، وانه لايحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً[3] ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده الى الله والى محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن اليهود مع المؤمنين ما داموا محـاربين ، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ[4] إلا نفسه وأهل بيته ، وأن ليهود بني النجار ويهود بنى الحارث ويهود بني ساعدة ويهود بني جشم ، ويهود بنى الأوس ويهود بني ثعلبة ولجفنة ولبني الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن موالي ثعلبة كأنفسهم وأن بطانة[5] يهود كأنفسهم ، وأنه لا يخرج منهم أحد الا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم وانه لاينحجز على ثأر جرح ، وأنه فتك فبنفسه وأهل بيته الا من ظلم . وأن الله على أبر[6] هذا ، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وانه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وأن النصر للمظلوم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يثرب حرام جوفها على أهل هذه الصحيفة ، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وانه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن

---

١ ــ أي أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض .

٢ ــ اعتبطه : أي قتله بلا جناية منه توجب القتل .

٣ ــ محدثاً : أى مبتدعاً لأمر .

٤ ــ يوتغ : يهلك .

٥ ــ بطانة الرجل : خاصته وأهله .

٦ ــ أي على الرضا به .

مرده الى الله والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ، وانه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وانهم اذا دعوا الى مثل ذلك فان لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم ، وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وأن البر دون الإثم لايكسب كاسب إلا على نفسه ، وأن الله على أصدق مافى هذه الصحيفة وأبره ، وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأن من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى[1] .

هذه المعاهدة أو الوثيقة الخالدة قررت جملة مبادىء وقواعد تعد بلا جدال آية من آيات عبقرية الرسول صلي الله عليه وسلم السياسة ، كما تعد فتحا جديدا في حياة المسلمين بعد الهجرة ، وأهم تلك المبادىء ما يلي :

أولا: وحدة المسلمين . . . لقد قررت الصحيفة أن المسلمين أمة واحدة ، يتناصرون ويتكافلون وهذا يعنى أن العصبية القبلية التي كانت تحكم المجتمع العربي قبل الاسلام وتجر عليه المتاعب والمشكلات قد توارت في ظل الدعوة الجديدة التي حاربت الفخر بالأنساب والأحساب ونبذت كل دعاوى العنصرية والطائفية ، وأكدت أن الناس جميعا سواء لايتفاضلون بالعرق والجنس والمال ، ولكن بتقوى الله والعمل الصالح .

ثانيا: تقرير الحرية الدينية : إن الاسلام يرفض مبدأ الاكراه فى الدين ، ولهذا قررت المعاهدة حرية العقيدة وحرية الرأى ، وكان هذا تكريما للانسان الذى عبث به الظلم والاستبداد ، وحرمه القهر والتسلط من اعتناق ما يؤمن به أو الجهر بما يراه .

ثالثا: وحدة أهل المدينة : فهم جميعا على اختلاف دينهم يد واحدة على أعدائهم ، فعليهم أن يدفعوا عنها كل عادية عليها ، وبهذا أصبحت المدينة قوة تحمى جميع سكانها ، وتكفل لهم الحرية والأمن والاستقرار .

---

١ — سيرة ابن هشام ص٥٠١

رابعا : تنظيم الحياة الاجتماعية : لم تغفل المعاهدة الجانب الاجتماعي ، فقررت عقاب كل من يقترف جرما أو لايرعي حرمة ؛ لتظل المدينة حرما لأهلها ، كذلك دعت إلى التكافل بين الأغنياء والفقراء ؛ تأكيدا للوحدة بينهم وضمانا لاستقرار الحياة في مجتمع المدينة .

وبالإضافة الى هذه المبادىء نصت[1] المعاهدة على قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم لكافة سكان المدينة ، ومن ثم سادت كلمة الاسلام فيها ، وسكن المسلمون الى دينهم ، وجعلوا يقيمون فرائضه مجتمعين وفرادى لايخافون أذى ولايخشون فتنة[2] .

المؤاخاة :

إذا كانت الصحيفة قد حققت للمسلمين فى المدينة الاستقرار والاطمئنان فانها لم تخلصهم تماما من محاولات النيل منهم ، فاعداء الاسلام في داخل المدينة وفي خارجها يتربصون به ويكيدون له ، ويعملون[3] في الظلام للانقضاض عليه[4] ، فضلا عن أن المهاجرين قد ضحوا بكل غال ونفيس من أجل الحفاظ على عقيدتهم ، لقد تركوا ديارهم وأموالهم رهاجروا في سبيل الله ـ اذا كان الأمر كذلك تبين لنا أن المسلمين فى مستهل حياتهم الجديدة بعد الهجرة كانوا في أمس الحاجة الى تشريعات تشد أزرهم ، وتحمى وحدتهم ، وتعدهم لخوض المعارك المتباينة ضد الشرك والنفاق والحقد .

وكانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار تشريعا يتلاءم مع طبيعة الفترة الحرجة التى كان المجتمع الاسلامى يمر بها عقب الهجرة ، فقد حقق التعاون والتناصر بين أفراد هذا المجتمع تحقيقا كفل له التماسك والتغلب على كل ما يتهدده في المدينة وخارجها .

والمشهور أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بين المهاجرين والأنصار بعد قدومه المدينة بخمسة أشهر ، وأن هذه المؤاخاة كانت على الحق والتوارث والمواساة وروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : تآخوا في الله أخوين أخوين[4] .

١ ـ أنظر الرسول القائد للواء الركن محمود شيت خطاب ص ٦٠ .

٢ ـ حياة محمد لهيكل ص ٢٢٨ .

٣ ـ انظر : محمد صلي الله عليه وسلم وبنو اسرائيل للدكتور مصطفي كامل وصفي طـ المجلس الاعلى للشئون الاسلامية .

٤ ـ البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٢٢٦ .

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنه قال : آخي رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه المهاجرين والأنصار وورث بعضهم من بعض حتي نزلت «وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض[1]».

ويرى بعض المفسرين أن قوله تعالى في سورة الانفعال : إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير» نص فى المؤاخاة من حيث التوارث ، ولذلك يذهب هؤلاء المفسرون الى أن الولاية فى الآية الكريمة خاصة بولاية الإرث ، لأن المسلمين كانوا يتوارثون فى أول الأمر بالاسلام والهجرة دون القرابة[2].

ومهما يكن من خلاف بين المفسرين حول تفسير الولاية وهل هي خاصة بالارث أو أنها غير خاصة به وتنسحب على كل معني تحتمله فان الآثار تضافرت على أن المؤخاة بين المهاجرين والأنصار شملت التوارث دون ذوى الأرحام .

لقد كان هذا الاخاء صلة فريدة في تاريخ التكافل بين أصحاب العقائد ، لقد قام مقام أخوة الدم ، فكان يشمل التوارث والالتزامات الأخرى الناشئة عن وشيجة النسب كالدياب وغيرها .

وبهذا الإخاء ازدادت وحدة المسلمين توكيدا واستطاعوا أن يصمدوا أمام عواصف الشرك والنفاق والكيد ، وأن ينطلقوا من مهجرهم بعد أمد وجيز ليطهروا البيت الحرام من الأوثان والأصنام ، ويدخل الناس في دين الله أفواجا .

بناء القوة العسكرية :

الاسلام دين القوة مافي ذلك ريب، قوة الإيمان والأبدان والعقول والانتاج والاعداد العسكري فهو دين الحق ، والحق بدون قوة لايعيش في دنيا الناس عزيزا كريما ، ولذا فرض الجهاد ، لا ليكون وسيلة لاكراه الناس على الإيمان ، أو لاستغلال الضعفاء

---

١ ـ الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر ص ٩ .

٢ ـ تفسير المنار جـ ١٠ ص ١٠٥ .

واستعبادهم ونهب ثروات الشعوب وخيراتها ، ولكن ليكون وسيلة للحماية والتمكين لكلمة الله في الارض[1].

والمعروف أن الاذن بالقتال والجهاد المسلح كان بعد الهجرة ، فالمسلمون فى مكة كانوا قلة وكانوا ضعافا ، ولامجال أمامهم لبناء قوة عسكرية تقف أمام صلف الشرك وطغيانه ، فكان من رحمة الله ألا يكلف المسلمون فى مكة قبل الهجرة بالجهاد المسلح فلا طاقة لهم عليه ، فلما هاجروا وأتيح لهم فى مهجرهم الاستقرار فرض القتال « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله[2].

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا ينمى لدى المسلمين فنون القتال ، ويدربهم عليه ، فقد مارسوا الحروب في الجاهلية ، ولهم بأساليبها دراية ، ولكنهم فى جاهليتهم كانوا يثيرون الحروب لاتفه الاسباب والاهداف ، غير أنهم بعد ان هداهم الله إلى الايمان لايعدون انفسهم للحرب ، سعيا وراء مغنم دينوي ، وإنما يفعلون ذلك احقاقا للحق وإرهابا لاعداء الله ، ومن هنا كان إعداد القوة تحكمه دائما عقيدة الايمان ومباديء الخير والسلام ، « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لاتظلمون[3] ».

وإذا كانت القوة جاءت فى الآية الكريمة مطلقة فتشمل كل قوة معنوية ومادية فان الذى يستنبه النظر ان رباط الخيل جاء بعد الامر بإعداد القوة مع انه يدخل فى مفهومها ، ويبدو ان فى هذا التخصيص ما يشير إلى وجوب العناية بالاعداد العسكرى الذي يحمي الثغور والحدود ، فالتعبير برباط الخيل يراد به القوة التي ترابط فى ثغور البلاد وعلى حدودها لتدفع عنها كل عدو يفاجئها بهجومه ، ومن ثم فضل أن تكون من أسرع القوى تحركا ، ومن أقدرها على القتال ، ولعل هذا هو سر اختيار « رباط

---

١ ــ أنظر الجهاد للدكتور أحمد الحوفي .

٢ ــ الآية : ٣٩ ، ٤٠ في سورة الحج .

٣ ــ الآية : ٦٠ في سورة الانفعال .

الخيل » للتعبير به عنه ، فقد كانت الخيل هي خير ما عرف العرب من وسائل الانتقال فى الحرب وأسرعها[1].

وقد جاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل اعداد المسلمين روحيا وماديا ليكونوا قوة ضاربة لاتخشى غير فاطر الأرض والسموات ، ونجح فى هذا نجاحا فائقا ، فقد أستطاع أن يجعل المؤمنين كلهم جنودا للحق تبذل في سخاء ، وتجاهد فى بسالة ، وتطمح نفوسهم للنصر أو الشهادة[2].

تلك أسس بناء الدولة الإسلامية الأولى فى تاريخ الاسلام ، وهي أسس ستظل فى كل زمان ومكان ضرورية لقيام الدولة الاسلامية ، لأنها رسمت للمسلمين الطريق الذى لاعوج فيه وبينت لهم المبادىء الخالدة التي يجب الحفاظ عليها والعمل بها ، ليكونوا بحق أمة الهداية ودولة النور والقوة والعزة والاباء .

إن تلك الأسس تدور في فلك الحكم بما أنزل الله والاعتصام بحبله المتين والبعد عن كل مايؤدى إلى الفرقة والتنازع والشقاق ، ثم تنظيم العلاقة ـ دون حيف أو هوان ـ بين المسلمين وغيرهم ، وأخيرا إعداد القوة الحارسة لتحمي وتذود ، وترهب أعداء الله وأعداء الحياة .

وما من شك فى أن الأمة الاسلامية في أشد الحاجة إلى تلك الأسس ، فما نالها مانالها إلا بسبب التفريط في احكام الله ، وهذه الفرقة التي قضت على الوحدة الجامعة المقدسة وكذلك هذا الاضطراب فى علاقة المسلمين بغيرهم ، وهو نتيجة حتمية للضعف والتفرق ، ولن يبلغ المسلمون ما ينشدون إلا بالعودة إلى أحكام قرآنهم وهدي نبيهم ، فصلاح أمر المسلمين اليوم لايكون إلا بما صلح عليه أمرهم بالأمس .

---

١ ـ سورة الانفال عرض وتفسير للأستاذ الدكتور مصطفى زيد ص ١٦٩ . ط الرابعة .

٢ ـ أنظر الرسول القائد للواء محمود شيت خطاب .

أسباب انتشار الإسلام

مما لاريب فيه أن الإسلام انتشر بين الناس انتشارا سريعا ، وآمنت به شعوب مختلفة في فترة زمنية وجيزة ، فما كاد القرن الأول ينتهي حتي كان الإسلام قد بلغ الصين شـــرقا وأوربا غربا ، واحتضنته أمم متباينة الثقافات والعادات واللغات ، وأضحت جميعها تحت لواء الإسلام أمة واحدة . وقد دفع هـذا بعض المؤرخين والباحثين الى دراسة هذه الظاهرة الفريدة فى تاريخ العقائد والديانات وجاءت الآراء التى تفسر هذه الظاهرة متناقضة ، طوعا لاختلاف الغايات من تلك الدراسة ، فالذين حرصوا على الموضوعية والدراسة العلمية الجادة انتهوا الى حقائق ناصعة، ونتائج باهرة، وأما الذين خضعوا فى دراستهم لمفاهيم واتجاهات خاصة ،فقد اتسمت آراؤهم بالتعصب والمغالطة ، وتجاهل الحقائق التاريخية الصحيحة . فمثلا يذهب عامة المستشرقين الى أن الاسلام انتشر فى أيامه الأولى وبخاصة فى مكة قبل الهجرة لأسباب اقتصادية، وانتشر بعد ذلك ـ بالاضافة الي الاسباب الاقتصادية ـ بقوة السيف ، واكراه الناس على الايمان به ، وما كانت غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وحروب الخلفاء الراشدين ومن أتي بعدهم إلا من أجل حمل الناس على الإيمان بالاسلام ، والتمرد على حياة الصحراء القاحلة والتطلع الى ثروات الشعوب والاستيلاء عليها .

وهذا كله باطل من القول ، فهؤلاء الذين آمنوا فى مكة لم يؤمنوا لأنهم فقراء يريدون أن ينعموا في الإسلام بما لم ينعموا به فى الجاهلية ، كما أنهم لم يتخذوا هذا الدين الجديد وسيلة للتجمع وتكوين طبقة تهيء نفسها للانقضاض على الاغنياء الذين طالما عذبوهم وحرموهم .

حقا إن بعض الذين آمنوا في مكة كانوا من الفقراء والأرقاء ، ولكن هؤلاء لم يرتضوا الإسلام دينا فراراً من الفقر والرق ، وجريا وراء المال والحرية ، فقد تعرضوا للأذي والعنت ، وعرضت عليهم الجاهلية أن تمنحهم ما يريدون على أن يذكروا محمداً بسوء وآلهه قريش بخير بيد انهم لم يخضعوا واستمسكوا بعقيدتهم وتحملوا من اجل ذلك المشقات والاخطار الجسام ، وهذا يدحض فرية الزعم بأن هؤلاء المؤمنين قد صدقوا محمداً صلي الله عليه وسلم وآمنوا بدعوته ؛ رغبة فى التخلص من الفاقة وأملا في ان يتيح

لهم الدين الجديد رغد العيش ، وانما آمن هؤلاء لانهم وجدوا فى الإسلام ـ وهو دين الفطرة ـ سعادة ارواحهم وعقولهم ففروا إلى الله ، وتركوا عبادة الاوثان والأصنام ولم يبالوا فى سبيل ذلك بما تعرضوا له من القهر والظلم .

على أن الذين آمنوا كلهم لم يكونوا فقراء أو أرقاء ، فقد صدق محمداً صلى الله علية وسلم وجاهد معه عدد كثير من الأثرياء وذوى المكانة في الجاهلية ، فمثلا كان عثمان بن عفان في الذروة من قومه غنى ومنزلة، ما الذى حمله علي يدع هذا كله ، ويقف أمام جبروت الوثنية فيتعرض للأذي والمهانة وقلة المال ، لقد جاهد بنفسه وماله ولو أراد الدنيا لظل على دين قومه ولكنه أراد الآخرة فما عبىء بأعراض الحياة ، وما بخل بما لديه فى سبيل الله . وهذا أبو بكر الصديق ينفق ثروته كلها دفاعا عن الإسلام حتي ليسأله الرسول صلي الله عليه وسلم : وما الذي أبقيت لميالك يا أبا بكر ؟ فيجيب الصديق إجابة المؤمن القوي فى ايمانه : أبقيت لهم الله ورسوله .

وهذا سعد بن أبي وقاص يرفض حياة الدعة والرغد في ظل الجاهلية ، ويؤثر عليها حياة الخشونة والفاقة والزراية من قومه تحت راية الإسلام . وتحاول أمه ان ترده عن دينه فلا يستجيب لها، وتصاب الأم من جراء موقف ابنها بالمرض الذى كاد يسلمها للموت فما كان من سعد إلا أن قال لأمه : والله يا أم لو رأيتك تموتين مائه مرة ثم تعودين ثانية إلى الحياة ماردنى ذلك عن دينى .

ما الذي حمل أمثال هؤلاء ـ وهم كثير ولا مجال هنا للحصر ـ على الإيمان بالإسلام مع ماجره عليهم هذا الإيمان من المتاعب وبذل النفس والنفيس ؟ ليس الأمر إذن كما يزعم عامة المستشرقين من أن الإسلام أنتشر لاسباب اقتصادية ، ولكنه انتشر لأنه الدين الحق الذي ينقذ الانسان من ضلالات الشرك ، ويكفل له حياة سوية لا تعرف الانفصام بين الدنيا والآخرة ولا بين الروح والجسد ، أنه دين الفطرة الذى يلبي كل أشواقها فى عدل وقصد ، ويسمو بها دائما الى أفق ملائكي من الطهر والصفاء ، وعامة المستشرقين لايودون الاعتراف بهذه الحقيقة؛ لأنهم يخافون أن يكون هذا سبيلا لانتشار الإسلام بين غير المسلمين ، وهم فيما يصدرون من آراء تحكمهم نزعات خاصة تدور كلها فى فلك تنفير غير المسلمين من الإسلام عن طريق تشويه الحقائق الموضوعية ، بالاضافة الى تشكيك المسلمين أنفسهم في دينهم ، في محاولة خبيثة لصرفهم عنه شيئا فشيئا .

وإذا كان انتشار الإسلام فى أيامه الأولى ليس كما يزعم أعداؤه فإن انتشاره بعد ذلك في بلاد مترامية الأطراف ليس نتيجة للحرب التى خاضها المسلمون، فهذه الحروب

لم تكن ولن تكون وسيلة لاكراه الناس على اعتناق الإسلام ، وإنما كانت هذه الحروب وستظل وسيلة لتحقيق الحرية الدينية بين الناس ، فمن شـــاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر .

لقد دأب خصوم الإسلام في العصر الحديث على ترديد القول بأن الإسلام انتشر بقوة السلاح ، وأن العرب المسلمين كانوا غزاة مستعمرين فرضوا عقيدتهم على كل من خضع لسلطانهم ، وأن هؤلاء العرب قد حركتهم بواعث العقيدة والتطلع الى ثروات الشعوب الأخري والضيق بحياة التنقل والبداوة وشظف العيش .

ولكن الدارس المنصف للحروب الإسلامية ، وللظروف الموضوعية التي ساعدت على انتشار الإسلام لايستطيع أن يسلم بما يردده خصوم الإسلام من المستشرقين ومن نسج على منوالهم ، ويدرك أن الحرب فى الإسلام ضرورة ، حماية للحق ودفعا للظلم وأنها ، ليست غاية في ذاتها ولا وسيلة لاكراه الناس على عقيدة يرفضونها ، كما أنها ليست أداة لنهب خيرات الشعوب واستعبادها .

إن الله تبارك وتعالى فرض الجهاد المسلح كما سبقت الاشارة الى هذا بعد الهجرة ، وإن الاذن بالقتال جاء مقرونا بدفع الظلم « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » .

فالحرب ليست أصلا من أصول الإسلام ، وغايتها كما أومأت آنفا تتحصر فى تحرير الناس من الطغاة والمستبدين ، فلا يكون في الأرض سلطان غير الحق ، وبذلك لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله .

ان الإسلام دين الفطرة ، ومن ثم لايمكن فرضه عنوة دون الاقتناع به ، فالعقيدة لاتحيا بين الناس بالاكراه والعنف ، وإنما تحيا بالاقتناع الصادق القائم على الوجدان والبرهان ، ولايتسنى لأية قوة في الأرض أن تلزم انسانا بعقيدة يأباها قلبه وينفر منها عقله .

فإذا عرفنا أن الإسلام دعوة عالمية ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كانت مهمته التبليغ لا الالزام « ان عليك إلا البلاغ » « لست عليهم بمسيطر» تبين لنا أن على العرب الذين اهتدوا وآمنوا أن يحملوا الإسلام إلى غيرهم من الأمم ، فالشرائع لايسأل عنها إلا بعد تبليغها ، ولذا لاحجة على كل من لم تصل اليه دعوة الإسلام ، وإنما تقع الحجة على الذين بلغهم هذا الدين ثم قصروا في تبليغه الى سواهم .

فمن أجل التبليغ وتحقيق الحرية الدينية وحماية الدعاة الى الله فرض الجهاد ، وكان ماضيا الى يوم القيامة ، ولهذا جعل الإسلام للحرب قانونا عادلا ونظاما محكما ، فهي حرب الحق والعدل وحماية الضعفاء ، وكفالة العزة والحرية للمسلمين وغيرهم ، وارهاب أعداء الله ، أعداء الحق والحياة ومن هنا كان الأمر بإعداد القوة « وأعـــدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم » .

والقوة فى هذه الآية شاملة ، فهى قوة الإيمان والأبدان والاعداد العسكري الذي يتلاءم مع كل زمان ومكان .

وما دامت غاية الجهاد تنحصر في هذا فإن أول ما يجب على المسلمين إذا ساروا الى غيرهم ألا يبدأوهم بالحرب أو الاعتداء ، لأنهم لم يسعوا رغبة فى القتال لذاته ، فهم أصحاب دعوة وليس عليهم إلا البلاغ .

ومن هنا كان واجبا أن يسبق الحرب أمران إذا ووفق على احدهما فلا قتال :

الأمر الأول : البدء بالدعاء الى الإسلام ، فإن استجاب القوم اختيارا ورغبة كما دعاهم اليه المسلمون فهم اخواننا لهم مالنا وعليهم ما علينا ، فإن أبوا ولم يستجيبوا فليس على المسلمين اكراههم على الإسلام ، ولكن عليهم ان يدعوهم الى الأمر الثانى وهو ان يدخل هؤلاء القوم مع المسلمين في عهد وميثاق ليصبحوا أهل ذمة لايتعرض لهم في عقائدهم الدينية ، ويتمتعون بكل حقوق الحماية والرعاية فى مقابل فريضة مالية يسيرة لاتجب علي غير القادرين منهم ، وذلك العهد لغرض واحد وهو أن يأمن المسلمون هؤلاء فلا يظاهروا غير المسلمين على المسلمين ، فان أبوا ان يدخلوا مع المسلمين في عهد وميثاق ، فقد جاهروا بهذا الرفض بالعداء ، وكأنهم يعلنون وقوفهم ضد تبليغ الدعوة الإسلامية الى الناس ، فتصبح الحرب في هذه الحالة لاخضاعهم وتحرير الناس من تسلط المتجبرين ومن يفرضون علي غيرهم عقائد خاصة ارضاء لأطماعهم ونزواتهم .

إن الإسلام دعوة الحق ، والحق بلا قوة تحميه وتدفع الحاقدين والضالين عنه لايستطيع أن يعيش فى دنيا الناس ولذا كان الأمر باتخاذ القوة لرد الاعتداء وحماية الضعفاء والقضاء على الطغاة من الحكام والولاة أولئك الذين لايدعون الناس أحرارا فيما يؤمنون به .

وأوضح شاهد على ذلك أن المسلمين فى مكة تعرضوا لصنوف مختلفة من الأذى

والاضطهاد وهم أصحاب حق ورسالة مقدسة ولكنهم لضعفهم وقلتهم لم يقدروا على مواجهة الشرك وحماقته فلما هاجر المسلمون إلى المدينة وهناك تكونت الدولة ، وأصبح للمسلمين قوة كان الجهاد لدفع الظلم ونصر الحق ودحر الباطل « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله[1] .

فالإسلام دين سلام ومودة ووئام ، الحرب فيه ضرورة تفرضها الظروف ولا مناص منها ليظل الحق ذا كلمة عالية وراية خفاقة ، وليست الحرب ولن تكون أداة لامتهان الانسان وفرض عقيدة عليه لا يريدها ، فما كانت القوة ابداً سبيلا لحمل الانسان على الإيمان بالعقائد والمبادىء لأن الإيمان بها أساسه الاقتناع القائم على المنطق والوجدان ، ولا سلطان لأحد عليهما مهما كان .

يضاف الى ما سلف أن الحروب في الإسلام لها مبادئها الانسانية التي لم تصل البشرية على الرغم من تقدمها الحضارى المذهل – إلي بعضها ومن هـذه المبادىء عدم اتلاف الحيوانات والزروع والثمار ، وعدم قتل الشيوخ والنساء والصبيان – والاهم من هذا أن الحرب فى الإسلام لاتعرف الغدر ولا أخذ الناس على غرة وابادة المقاتل وغير المقاتل ، لأن هدفها تحطيم الطغيان والمفسدين لا احتلال الدول والسيطرة عليها واستغلال ثرواتها كما تسعى الحروب غير الإسلاميه .

وما يقوله بعض المستشرقين ومن سلك سبيلهم من الباحثين من أن الإسلام دعوة قامت على السيف وانتشرت بالقهر والجبر لاصحة له ولا دليل عليه ، ويدحضه انتشار الاسلام فى بلاد لم تطأها الجيوش الإسلامية ، وكان التجار والمهاجرون والرحالة هم حملة الإسلام إليها .

وجملة القول أن الجهاد في الإسلام رسالة انسانية ووسيلة لرد المعتدين وقمع الظالمين وتبليغ الدعوة الإسلامية إلى الناس لا إلزامهم بها .

---

١ ــ الآية ٣٩ ، ٤٠ في سورة الحج ، وانظر نظرية الحرب في الاسلام للشيخ محمد أبو زهرة .

كذلك يحدثنا التاريخ[1] أن الشعوب كانت تسعى راغبة في الدخول في الإسلام؛ فرارا مما كانت تعانيه من الظلم والطغيان ، فهذا الدين حقق لها حياة انسانية كريمة كانت تتوق إليها . ولكن تسلط المتجبرين من الولاة حرم تلك الشعوب مما كانت تتوق إليه ، فلما جاء الإسلام بمبادئه الانسانية الرحيمة ، مبادىء الأخوة والمساواة والحرية والعدالة والكفالة الاجتماعية ، وجدت فيه البشرية أملها في التخلص من عبودية الانسان لأخيه الانسان ، وفي التخلص أيضاً من حياة التخلف والفساد ، فآمنت به أمم كثيرة في فترة زمنية وجيزة ، ولولا تلك الجهود التي بذلك من قبل الملوك والحكام حفاظا على عروشهم وسلطانهم ، وكذلك من قبل المتعصبين من رجال الأديان الأخرى لأصبح الإسلام سائداً بين الناس كافة ، ولعاشت البشرية على تباين لغاتها وألوانها وشعوبها في أخوة ومودة ، وما عرفت ذلك الصراع الدموي الذى كلفها الكثير ، وأفقدها حياة الأمن والاستقرار .

وجملة القول أن انتشار الإسلام لايرجع في جوهره إلى عوامل اقتصادية ، ولا إلى الحروب الإسلامية وإنما يرجع أولا إلى الإسلام ذاته ثم إلي شخصية الرسول ثانيا – وأخيراً ظروف العالم الاجتماعية والسياسية .

إن الإسلام بوضوح مبادئه ويسرها ، فهي تقوم على وحدانية الله وعبودية الانسان الخالصة له ، والإيمان بأن هذه الحياة متاع وأن الآخرة هي دار القرار ـ أطفأ لدى الانسان ظمأه إلى الحقيقة الصادقة والعقيدة المنقذة فأستجاب لدعوة القرآن مختارا ، لا فراراً من فقر ولاخوفاً من سيف .

وكان لشخصية الرسول أثرها في نشر الإسلام بين أهله وقومه ، فهو عليه الصلاة والسلام كان الصورة الحية الكاملة لما بعث به ودعا الناس إليه ، ولذا أحبه الجميع حتى هؤلاء الذين أبوا أن يؤمنوا به ، فكان لأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم وسجاياه الحميدة أثرها في النفوس ، فهفت القلوب إليه وصدقت ما جاء به .

---

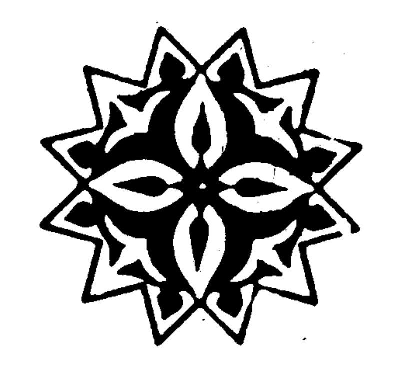
١ ــ انظر كتاب الدعوة الى الاسلام تأليف : ت ارنوله . ترجمة حسن ابراهيم وزميليه فقد جاء في ص ٥٤ ما يلى : ولما بلغ الجيش الاسلامي وادي الاردن وعسكر ابو عبيدة في فحل كتب الاهالى المسيحيون في هذه البلاد الى العرب يقولون : يامعشر المسلمين ، انتم احب الينا من الروم ، وان كانوا علي ديننا ، انتم أوفى لنا وأرأف بنا ، واكف عن ظلمنا ، واحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا عل امرنا وعل منازلنا .

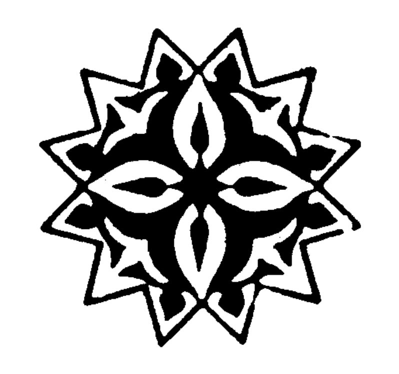
وورث الصحابة والتابعون ومن أتى بعدهم عن رسولهم تلك الأخلاق الكريمة ، وكانوا صورة واقعية للإسلام تسعى بين الناس في الأرض ، ففتحوا القلوب بسلوكهم وأخلاقهم قبل أن يفتحوا البلاد بجيوشهم ، وهذا هو سبب نجاح العلماء الرحالة فى نشر الإسلام في كل مكان رحلوا إليه ونزلوا به .

فإذا أضفنا إلي ما أومأت إليه آنفا الاضطراب السياسي والاجتماعي ، والفساد العقائدى الذى عم البشرية كلها وجعلها كمن أوشك على الغرق فى بحر لجيّ فكان الإسلام منقذه من الهلاك ـ أدركنا أن دعاوي الخصوم لاتقوم علي أساس علمي ، وأن الإسلام ينبذ مبدأ الاكراه ، وأن المؤمنين به دخلوه طواعية دون أن تكون هناك ضغوط مادية حملتهم علي ذلك ، وأن الحرب في الإسلام حرب حماية ووقاية وليست حرب نهب لخيرات الشعوب أو الزامها بما لاتريد أن تؤمن به وأن أسبات انتشار الاسلام ترجع إلىما اشرت إليه فياجال، وان هذه هى الحقيقة الموضوعية التى لاتعرف الادعاء او المهاراة «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فيالأرض[1] .

*

١ ـ الآية ١٧ في سورة الرعد .





الباب الثانى

البناء العقائدى للإسلام

١- تمهيد .
٢- الوحدانيّة .
٣- العالمية .
٤- المسئولية .
٥- مفهوم العبادة .

تمهيد

لايستطيع الانسان أن يحيا دون عقيدة يؤمن بها ، فهو بفطرته يستشعر حاجته الملحة إلى الايمان بما يملأ وجدانه وعقله راحـة واطمئنانا ، لأنه لايجد الراحة النفسية والعقلية دون عقيدة تجعل لوجوه معنى ، ولحياته فى الأرض غاية .

ومنذ خلق الله الانسان وهو ينشد الايمان الذى يريح قلبه وفكره ، وإن ضل طريقه الصحيح عبر عصور التاريخ نحو ما يجب عليه أن يؤمن به .

وكان من رحمة الله بهذا الانسان الذى كرمه ربه ، وسخر له هذا الكون كله ، وأنعم عليه بما لايحصى من النعم أن أرسل اليه الرسل والأنبياء لهدايته الصراط المستقيم ، فالانسان مع مامنحه الله من الطاقات والقدرات التي يميز بها بين الخير والشر والحق والباطل كان يتخذ من دون الله آلهة شتى ، وكان ينحرف عن الجادة في سلوكه ، ولو ترك هذا الانسان دون أن يبعث الله إليه رسلا مبشرين ومنذرين لعاش حياة لاتختلف كثيرا عن حياة الغابة ، ويمسي همـه محصورا فى شهوات جسده من طعام وشراب وما إليهما ، وهو فى سبيل ذلك لايعرف الالتزام بمبدأ إنساني أو عقيدة أخلاقية .

وجاءت كل الرسالات الإلهية واحدة من حيث الأصل والغاية ، فهى جميعها تدعو إلى وحدانية الله تعالى وافراده بالعبادة ، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وجنة ونار ، ويكاد ينحصر التباين بين رسل الله فى بعض صور العبادات وأنواعها ، وصدق الله العظيم « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » .

وكانت رسالة الإسلام خاتمة الرسالات الإلهية ومهيمنة عليها ، كما كانت ناسخة لها ، وذلك أن كل دعوات الأنبياء التي سبقت دعوة محمد صلي الله عليه وسلم كانت دعوات تخاطب مجتمعا محدوداً يتمثل فى قوم النبي دون سواهم ، كذلك كانت دعوات مرحلية لها مهمة مؤقتة غير دائمة ، وكان هذا لحكمة أرادها الله تبارك وتعالى حتى تتهيأ البشرية للدعوة الخاتمة ، وكانت رسالة الإسلام التى بعث بها محمد صلى الله عليه وسلم هى الرسالة

الجامعة التي ختم الله بها النبوات ، وجعلها للناس كافة الى يوم الدين .

والحديث عن البناء العقائدى للإسلام لاسبيل للاحاطة به في كتاب مهما يكن حجمه ، فكل ما قرره هذا الدين من تعاليم وفرضه من فرائض سواء أكانت فى نطاق ما يسمى بالعبادات أم المعاملات يندرج تحت ذلك الحديث ، فالاسلام من حيث تعاليمه ومبادئه وحدة لاتعرف الانفصام ، والانسان المسلم يخضع في حياته كلها للإسلام ، ويؤمن بأن كل عمل يعمله محاسب عليه ومجزي عنه إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، ولذا يظل المسلم أبدا صورة حية فى أقواله وأفعاله للإسلام وشريعته .

وما دام الأمر كذلك فإن الحديث عن البناء العقائدى للإسلام سيتناول في ايجاز بعض الأصول العامة والتي يمكن أن تقدم تصوراً مجملا للعقيدة الاسلامية .

*

الوحدانية

وجــود الله :

يجدر قبل الحديث عن وحدانية الله تبارك وتعالي ، وأنها أساس البناء العقائدى للاسلام ، فهى الاصل وماعداها ففرع عنها .

يجدر الاشارة الى قضية يثيرها الملاحدة، ودعاة المذاهب المادية في العصر الحاضر ، وهي الحديث عن وجود الله ، فهناك من زعموا أن العالم لم يزل كذلك موجوداً بنفسه بلا صانع أو موجد ، وهؤلاء يحاربون الاديان كلها وبخاصة الاسلام ، ويرون أنها تخدر الشعوب وتحول دون حصولها على حقوقها المشروعة في الحياة .

وهؤلاء الذين ينكرون وجود الله ، ويذهبون الى أن القوانين الدقيقة التي يخضع لها هذا الكون مصدوها الطبيعة والنشأة التلقائية ـ هؤلاء يخطئون خطأ علميا واضحا، لانك إذا سألتهم عن الطبيعة وكنهها ، وكيف هيأت تلك القوانين التي عرف بعضها الانسان ، لم يستطيعوا أن يجيبوا بشيء مقنع ، او يجادلوا عن نظريتهم بأدلة معقولة ، واخذوا يرددون كلمة الطبيعة ترديدا يصرخ دينهم بوجود الله ، لأنهم بإحالتهم نشأة الكون ونواميسه على الطبيعة انما يحيلون على امر مجهول ، وكأن كلمة الطبيعة اصبحت رمزا لوجود الله في اعماق هؤلاء الملاحدة ، وان كابروا وزعموا غير ذلك[1] .

على أن ملاحدة العصر الحديث امتداد لملاحدة العصور السالفة ، فما خلا عصر فى تاريخ البشرية من ملاحدة وطبيعيين ومن صراع بين هؤلاء والمؤمنين ـ وقد كان فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم من قال : « وقالوا : ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وماهم بذلك من علم إن هم الا يظنون »[2] فهؤلاء الدهريون الذين يرجعون الموت الي الدهر ، ولا يؤمنون بوجود الله الذى يحي ويميت يظنون ظنا

---

١ ـ أنظر الرد علي الدهرين للشيخ محمد عبده ، وعلى أطلال المذهب المادي لمحمد فريد وجدي .

٢ ـ الآية ٢٤ في سورة الجاثية .

لايقوم على تدبر ، ولا يستند الى علم ولا يدل على ادراك لحقائق الأمور ، فالدهر لاينهي الآجال ، ومرور الايام لايسلب الحياة ، وها نحن نرى ان الاطفال يموتون كالشيوخ ، والأصحاء يموتون كالمرضى ، فليس الدهر أو مرور الأيام سبباً لانقضاء الآجال ، بيد أن أمثال هؤلاء الدهرين يجرون وراء الأوهام والظنون كما يفعل خلفهم فى العصر الحديث .

إن كل دعاوي الملاحدة فاسدة وباطلة ، وهم فى الواقع يحاولون الهرب من مسئولية الإيمان بوجود الله وماتفرضه عليهم من سلوك ملتزم بقيم ومثل انسانية لاتعرف الأهواء ، بالإضافة إلي أن تلك الدعاوى المزعومة لاتجعل لحياة الانسان معنى ، ولا تميزه عن سائر الكائنات العجماء ، وذلك أن حياة الانسان لاقيمة لها ، ولا جدوى منها إذا لم يعمرها الايمان بوجود الله .

وكان منهج القرآن الكريم في الحديث عن وجـــود الله يتلخص في توجيه نظر الانسان إلى هذا الكون الفسيح وما يعج به من مخلوقات ومن بينها الانسان ، وكيف خلقه الله في أحسن تقويم ، فهذا النظر المتأمل الواعي الصادق يقود للايمان الخالص بوجود الله الحكيم العليم .

وما دعا إليه الكتاب الغزيز هو ما انتهى إليه العلم الحديث ، فقد نادي بعض العلماء أخيراً بأن الانسان لايعيش وحده ، وأن هذا الكون يخضع لقدرة مدبرة أحكمت صنعه ، وكان هذا بعد دراسات عديدة كشفت نتائجها الباهرة عن هـــذه الحقيقة الخالدة لدي هؤلاء الباحثين غير المسلمين[1] وأكدت أن العلم يدعو للايمان ، وأن الانسان كلما ازداد معرفة ببعض أســـرار الحياة ازداد ايمانا واقتناعا بوجود الله وازداد أيضاً خشية منه وطاعة له ، وصدق الله العظيم إذ يقول : « إنمـا يخشى الله من عباده العلماء »[2] .

---

١ ـ انظر العلم يدعو للايمان « ترجمة محمود صالح الفلكي ، والله يتجلي في عصر العلم ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان .

٢ ـ الآية ٢٨ في سورة فاطر .

الوحدانية :

وإذا كان الايمان بوجود الله حقيقة لايصح أن يقوم خلاف عليها أو جدل حولها ، فإن الايمان بوحدانية الله هو أساس البناء العقائدي للرسالات الالهية كلها ، فما بعث الله نبيا الا بدعوة الوحدانية وإن زعم غير ذلك الضالون .

إن هذا الكون بمخلوقاته ونواميسه ليس له إلا إله واحد يسيره ويدبره ، والكل خاضع له ويسبح بحمده « إن كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا»[1] « وإن من شيء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم[2] » .

ولم تكن البشرية في مبدأ وجـــودها على الأرض الا موحدة لاتعرف الوثنية والشرك ، غير أنها بعد حين من الدهر اتخذت آلهة شتى ، وأشركت بالله الواحد الأحد ، فــكان من رحمة الله بها أن أرسل اليها أنبياءه ورسله ؛ للأخذ بيدها الى طريق الإيمان الصحيح ، وللعودة بها الي ما كانت عليه منذ آدم عليه السلام .

وحين بعث الله محمداً صلي الله عليه وسلم كان الناس يعبدون آلهة مختلفة ، فنهم من كان يعبد الأوثان والأصنام ، ومنهم من كان يعبد النار والكواكب والحيوانات ، إلى غير ذلك من صور الشرك والوثنية وعدم الإيمان الخالص بالوحدانية ، وزاد الامر سوءا أن اليهود والنصارى رفعوا الانبياء الى مصاف الآلهة « وقالت اليهود عزيز ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواهم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحـــدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون»[3]

وإزاء هذا الضلال والفساد الذي عم البشرية كلها حتى أهل الكتاب قرر القرآن

---

١ ـــ الآية ٩٣ ـ ٩٥ في سورة مريم .

٢ ـــ الآية ٤٤ في سورة الأسراء .

٣ ـــ ٣٠ ، ٣١ في سورة التوبة .

الكريم فى آيات كثيرة وحدانية الله تبارك وتعالى ، وجادل الوثنين والذين يدعون للبشر ماليس لهم ولو كانوا أنبياء ، ومن ذلك قوله تعالى . . « وأن المساجد لله فلاتدعو مع الله أحدا[1] » « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم[2] » قل إنما هو إله واحد وإننى بريء مما تشركون[3] ».

وأبطل القرآن الكريم زعم النصارى وقولهم ان المسيح ابن الله ، وبين لهم أنهم بهذا قد ضلوا واضلوا، ولم يتبعوا ما جاءهم به عيسى ابن مريم « ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم[4] » « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم[5] » « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمي إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ما يكون لى أن أقول ماليس لى بحق ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم مافي نفسى ولا أعلم مافي نفسك انك أنت علام الغيوب ، ماقلت لهم الا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد[6] ».

وفي هذه الآيات بيان صريح بأن أتباع عيسي عليه السلام لم يحافظوا على مادعاهم إليه من عبادة الله وحده ، وأنهم غيروا وبدلوا وأضفوا على نبيهم ـ وهو بشر يأكل ويشرب ـ صفات الألوهية « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام[7] ».

وكما فند الكتاب العزيز مزاعم أهل الكتاب حول أنبيائهم ناقش عبدة الأوثان والأصنام ، وكشف عن ضلال عقولهم وانحراف عقائدهم ، وأقام لهم ولأمثالهم الأدلة العقلية والحسية التي لاريب فيها والتى تدل على وحدانية الله ووجوب الخضوع له

---

١ ـ الآية ١٨ في سورة الجن .

٢ ـ الآية ١٦٣ في سورة البقرة .

٣ ـ الآية ١٩ في سورة الانعام .

٤ ـ الآية ١٧١ في سورة النساء .

٥ ـ الآية ١٧ في سورة المائدة .

٦ ـ الآية ١١٦ ، ١١٧ في سورة المائدة .

٧ ـ الآية ٧٥ في سورة المائدة .

واللجوء إليه ، ومن ذلك قوله تعالي : « الا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض ، وما يتبع الذين يدعون من الله شركاء ، إن يتبعون الا الظن ، وإنهم لايخرصون[1] ».

« قال : أفتعبدون من دون الله مالاينفعكم شيئا ولا يضركم ، أف لـكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون[2] » .

« قال : أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون[3] » الى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى تحدثت عن المشركين ونهتهم عن عبادة غير الله ، وأثبتت لهم أنه سبحانه واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وأن ماعداه من المعبودات ضـــلال مبين وإثم عظيم .

إن مانزل من القرآن الكريم فى مكة يبلغ تقريبا ثلاثة أخماس القرآن كله ، وهذا القدر من الكتاب العزيز يتحدث بوجه عام عن وجود الله ووحدانيته ، ناقش الملاحدة والمشركين مناقشة عقلية منطقية ، وفند أباطيلهم ، وأبان لهم عن فساد ماهم عليه من عقائد موروثة ، وأكد لهم أن هذا الكون لايستقيم حاله مع تعدد الآلهة ، ومن ذلك قوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله اذا لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض »[4] ومعنى هذه الآية أن تعدد الآلهة يقتضي تعدد الافعال المختلفة لكل إله يفعل غير مايفعل الآخر ، ولكننا نرى عالما واحدا يخضع لنواميس واحدة فلا يعقل أن يكون موجودا بسبب عدة آلهة ، ولابد أن يكون موجودا بسبب إله واحد ، اليه يرجع الأمر كله ، وهو على كل شيء قدير .

ومعني هذه الآية وثيق الصلة بآية أخري وهى قوله تعالى : لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا[5] » فهى تقرر حقيقة فطرية ، وهى أن التعدد فى المسئولية يترتب عليه النزاع والفساد ، والوحدة فيها سبيل الاستقرار والصلاح ، وهذا الكون بما فيه يشهد بوحدانية الخالق وعظمته ، وكل يوم يقف العـلم على جديد من عجائب هذا الكون وأسراره تؤكد بما لايدع مجالا للريب وحدانية الله وتفرده بالخلق والايجاد[6] .

١ ــ الآية ٦٦ في سورة يونس .
٢ ــ الآية ٦٦ ، ٦٧ في سورة الانبياء .
٣ ــ الآية ٩٥ ، ٩٦ في سورة الصافات .
٤ ــ الآية ٩١ في سورة المؤمنون .
٥ ــ الآية : ٢٢ فى سورة الانبياء .
٦ ــ انظر مناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد ، ت : د محمود قاسم ص ٣٤ .

والإيمان بوحدانية الله وانه سبحانه لاشريك له فى ملكه يوجب لامحالة الإيمان بوحدة ماجاء به كل الرسل والأنبياء من حيث الأصول العامة والقواعد الـكلية ، ويصبح الإيمان بهؤلاء الرسل جميعا من مقتضيات الإيمان بوحدانية الله تبارك وتعالى ، فالذى يؤمن بأن الله واحد أحد ، ثم يفرق بين أنبيائه ورسله ، يؤمن ببعضهم دون بعض لايكون إيمانه كاملا ولا مقبولا ، ويكون ضحية لأهواء التعصب والتقليد .

وليس الإيمان بوحدانية الله مقصورا علي الاعتقاد بأنه سبحانه رب الأرض والسماء وخالق كل شيء ، وإنما يشمل هذا الإيمان كل تصرفات الانسان ، بمعنى أن يلجأ فى جميع أحواله الى الله ، وهو لجوء ينفي عما سواه جلب منفعة أو دفع ضر ، ومن ثم يعتز المؤمن بربه وحده ، ولايذل البشر مهما يكن جاهه أو منصبه .

وإذا كان الأمر هكذا فإن عدم الالتزام بما شرعه الله من أحكام ، واتخاذ القوانين الوضعية دستورا يتحاكم اليها الناس بدلا من القوانين الإلهية ضرب من الشرك بالله ، وعدم إخلاص العمل له سبحانه ورجاء الخير من غيره بهذا العمل شرك أصغر حذر منه رسولنا الكريم، ونبه الى أنه يمحق الأعمال ولايجعل لها عند الله جزاء ، فقد روي الامام أحمد بن حنبل عن محمود بن لبيد أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال : إن أخوف ماأخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟ قال :الرياء ، يقول الله عز وجل ـ للمرائين ـ إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا الى الذين كنتم تراءون في الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟ ».

ويعد التوسل بالموتي والتمسح بقبورهم والاحتفاء بذكري مولدهم ، والاعتقاد بأنهم يملكون للأحياء نفعا أو ضرا لونا من الشـــرك بالله ، كذلك السعي الى المنجمين والمشعوذين ، والإيمـان بأنهم يعرفون الغيب ويرشدون الى الخير صورة من صور الشرك بالله .

أما الرضا بالمهانة والمذلة لإنسان ايمانا بأنه يستطيـع أن يحقق مصلحة ، أو يدفع مصيبة فهو شرك أيضاً ، وهكذا يصبح كل سلوك ينأى فيه الانسان عن بارئه ، ويقصد به سواه شركا وضلالا مبينا ، وهذا يعنى أن الإيمان بوحدانية الله لايكون صادقا أو

كاملا الا اذا محص الانسان كل أعماله لخالقه ، وآمن بأنه وحده بيده الأمر كله ، وان ماعداه مهما كان لايملك لانسان نفعا ولاضرا، ومن هنا يكون الإيمان بوحدانية الله مصدر العزة والكرامة ، وسبيل السعادة في الدنيا والآخرة .

وخلاصة القول أن الشرك بالله أكبر المحرمات ، وأشدها افسادا للعقل والفطرة ، سواء أكان هذا الشرك باتخاذ الأنداد أو الشفعاء لله ، أم كان باتخاذ الأرباب الذين يشرعون الأحكام ، ويتحكمون في الحلال والحرام[1]، أم كان اعتقادا بأن من البشر أناسا يملكون النفع والضر فيجب السعي الى قبورهم أو الخنوع لهم ، هذا الشرك فى مختلف ألوانه جريمة شنيعة فى تاريخ الانسانية ، ومن المؤسف أنها فى العصر الحديث على الرغم مما بلغت اليه من التقدم الحضارى المذهل ، ما زالت ترسف فى أغلال الشرك فهناك من يعبد الأوثان ، وهناك من يعبد الشهوات ، ويقترف فى سبيلها كل المنكرات ، فضلا عن المذاهب المادية الملحدة التي تريد للانسان أن يحيا كالحيوان لاهم له الا الطعام والشراب ، وستظل الانسانية تعاني من القلق والهلع والاضطراب مالم تعتصم بالإيمان الصحيح بوحدانية الله ، فهذا الإيمان يحرر الانسان من عبودية غير الله ، وحينئذ يتحرر من كل أسباب المهانة الانسانية ، ويحيا أبيا كريما لايرضي بالدنية في دينه ودنياه ، ولايعرف التعصب الأحمق طريقا اليه ، وتكون وجهته فى كل أعماله فاطر الأرض والسماء وصدق الله العظيم :

« قل ان صلاتى ونسكي ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين[2] .

---

١ ــ أنظر دراسات في التفسير ص ١٦٣ .

٢ ــ الآية ١٦٢ ، ١٦٣ في سورة الانعام .

العــــالمية

يختلف الإسلام عن غيره من الأديان السماوية بأنه دعوة عالمية للناس كافة ، بعث بها محمد صلى الله عليه وسلم ، لإخراج الناس من الظلمات إلى النور .

إن رسالة الإسلام لم تكن خاصة بالعرب فحسب ، ولكنها للبشرية كلها على تباين لغاتها ، وألوانها وعاداتها ، لقد جاءت هذه الرسالة لتخاطب في الانسان فطرة الله التي فطر الناس عليها .

وقد وردت فى القرآن الكريم آيات كثيرة ، ونقل الرواة الثقاة أحاديث عدة ، وفى هذه الأحاديث وتلك الآيات بيان صريح عن عالمية الإسلام ، وأنه دعوة للناس كافة ، ومن ذلك قول الله تبارك وتعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لايعلمون[1] ».

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله الا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين[2] .

وفضلا عن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تتحدث عن عالمية الإسلام ، فإن هناك مسألتين لو أحاط بها كل من يحترم عقله لآمن بأن محمداً آخر الأنبياء ، وأن الإسلام رسالة الهدي والخير للبشرية قاطبة حتي يرث الله الأرض ومن عليها .

الأولى : طبيعة المعجزة التي جاء بها محمد صلي الله عليه وسلم .

الثانية : تعاليم الإسلام .

---

١ – الآية : ٢٨ في سورة سبأ .

٢ – صحيح مسلم حديث ٢٢٨٦ .

معجزة القرآن :

أما المسألة الاولي فإن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم هي القرآن الكريم ، وهي خالدة ، حفظها الله من التغيير والتبديل وستظل كذلك إلى يوم الدين « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[1].

وهذه المعجزة تختلف عن سائر معجزات الأنبياء الذين بعثوا قبل محمد عليه السلام من حيث أن معجزة القرآن تمتاز بأنها معجزة عقلية ، وأنها مع هـذا معجزة غير شخصية ، بمعني أن وجودها وبقاءها غير مرتبط بشخصية النبي أو الرسول ، ومعجزات سائر الأنبياء لم تكن كذلك ، فهي معجزات حسية مادية ، كما أنها معجزات شخصية تظل آية على صدق النبي فى حياته ، فإذا توفاه الله أصبحت هذه المعجزة خبراً يروى وأثرا ينقل ، فمثلا كانت معجزة موسى عليه السلام العصا تنقلب حية ، فتلقف ما يأفك به سحرة فرعون . وكذلك كانت معجزته أنه يخرج يده من جيبه فإذا هى بيضاء للناظرين ، فهي معجزة حسية تشاهد وترى ، وهى معجزة شخصية ، فبعد وفاة موسي أصبحت هذه المعجزة خبرا يروى .

وكانت معجزة عيسي عليه السلام ابراء الأكمه والأبرص واحياء الموتي بإذن الله ، فلما توفاه الله أو رفعه إليه وطهره من الذين كفروا أصبحت هذه المعجزة خبرا يروى ، ولكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم ليست من جنس هـذه المعجزات ، فهى عقلية[2] غير حسية ، وهى هذا القرآن الكريم المشتمل على الشريعة المحكمة ، وهى معجزة غير شخصية ، فهى باقية إلى يوم الدين ، والناس بعد محمد صلى الله عليه وسلم يرون معجزته رأى العيان كمن شاهدوا محمدا وخاطبوه ، وإذا كانت الأجيال كلها ترى هذه المعجزة وتفهمها فهي حجة الله القائمة عليها ، فإن ضلت فإنها لا تضل عن جهالة ، ولا عن نقص في الدلائل والبينات ولا من شك فى الامر ، بل عن عمى في البصيرة وتحكم فى الهوى .

إن بقاء معجزة القرآن وخلودها وحفظها من التحريف والتبديل دليل على أنها

---

١ ـ الآية ٩ في سورة الحجر .

٢ ـ انظر القرآن المعجزة الكبري للمرحوم الشيخ محمد أبو زهرة ص ١٥ .

معجزة الدهر وصوت السماء الى كل انسان على ظهر هـذه الارض حتي يقوم الناس لرب العالمين .

وقد يسأل سائل اذا كان القرآن معجزة الدهر وحجة الله القائمة الى يوم الدين ، فإن هذا القرآن قد نزل بلسان عربي مبين ، ومن آية الله في خلقه اختلاف الالسن والالوان ، فكيف يتسنى لهؤلاء الذين لايعرفون العربية أن يفهموا القرآن ؛ ليكون حجة عليهم ؟ .

إن السبيل الي ذلك لايكون بترجمة القرآن ترجمـــة حرفية الى مختلف اللغات البشرية ، فترجمة القرآن على هذا النحو مستحيلة لان القرآن كلام الله بلفظه ومعناه ، وهو فى درجة من البلاغة ، والفصاحة أعجزت أرباب البيان ليصلوا الى هدفهم واثبات زعمهم بأن القرآن أساطير الاولين اكتتبها محمد ، ومن ثم لن يستطيع انسان مهما أوتي من قوة البيان وفصاحته أن يترجم القرآن الى لغة غير عربية بحيث تصبح الترجمة بهذه اللغة كالقرآن فى لغـــة العرب اعجازاً وفصاحة ومادام الامر كذلك فإن السبيل الصحيحة الى تقريب الإسلام الى غير العرب أن يوضع للقرآن تفسير موجز لايخوض فى المسائل الخلاقية ، ثم يترجم هذا التفسير الي أمهات اللغات ، ويضاف الى هذا وضع مؤلفات مبسطة تعرض أحكام الإسلام في مختلف شئون الحياة وتترجم أيضا هذه المؤلفات الى اللغات الاخري ، وحبذا لو تعاونت الدول الإسلامية كلها على اصدار دورية شهرية باللغات الاجنبية تكون منبرا للفكر الإسلامي الذى يدعو للتى هى أقوم ، فهذه الدورية في العصر الحديث ضرورية لشرح الإسلام وخصائصه وما يدعو اليه .

تعاليم الاســـلام :

وأما المسألة الثانية التى تثبت عالمية الإسلام فهى تعاليم هذا الدين القويم ، فهذه التعاليم تخاطب الفطرة الانسانية ، وتنظر الى الانسان نظرة واقعية ، وتحترم العقل البشري ، وتؤكد المساواة بين الجميع ، وتكفل للناس السعادة الدارين بما سنته من مبادىء ونظم صالحة لكل زمان وكل مكان ، وهى بهذا تنآى عن الاقليمية أو المحلية ، فهي انسانية عامة تلبى حاجات المجتمعات فى جميع الازمان والعصور . وقد نشأت نظم وجدت مبادىء ولكنها اندثرت ، وأصبحت نسيا منسيا ؛ لانها لم تحقق للمجتمع

الإنساني الاستقرار والامان والاطمئنان ، بيد أن تعاليم الإسلام ظلت حية نامية على مر القرون والاحقاب ، لانها لم تكن ـ كالقوانين الوضعية ـ منبثقة عن حاجة اقليمية أو ظروف طارئة . ولكنها جاءت لتأخذ بيد المجتمع البشرى قاطبة الى سبيل العزة والحياة الحرة الكريمة .

وقد يقول قائل ، اذا كانت تعاليم الإسلام كما أومأت آنفا فما بال الامم الإسلامية اليوم ضعيفة ومتخلفة ، ولا حول لها ولا طول يدفع عنها الاخطار الجسيمة التي تهددها من كل جانب ؟ . . .

والاجابة الشريعة أن حال الامم الإسلامية اليوم لايرجع الى تعاليم الإسلام وإنما يرجع الى المسلمين أنفسهم ، فالمسلمون قد أتي عليهم حين من الدهر نسو الله فأنساهم أنفسهم ، وأهملوا دينهم وتعاليمه فأصابهم ما أصابهم ، ولا سبيل لان يكونوا كما وصفهم القرآن الكريم بأنهم خير أمة أخرجت للناس إلا بالاعتصام بالإسلام ، وتعاليمه ، فهذا الدين يدعو الى الوحدة والقوة ، وبهما معا يتحقق للأمة العزة والحياة الكريمة التى لاتعرف التخلف أو التوقف .

ونظرا لان هناك فئة من المسلمين تأثرت بالفكر الغربي كل التأثير فإنى أثبت فيما يلى نص قرار لمؤتمر دولى عقد فى باريس سنة ١٩٥١ م حول الإسلام وتعاليمه ، لعل في هذا الاعتراف الدولى ما يحمل هؤلاء علي أن يعيدوا النظر في آرائهم حول دينهم ، وعلى أن يحاولوا دراسة هذا الدين من مصادره الاصيلة ، فإنهم بلا ريب سيجدون الخير كل الخير فيما وضعه الإسلام من نظم وقوانين .

يقول قرار المؤتمر الدولى : « ان المؤتمرين – وقد أبدوا الاهتمام بالمشاكل المثارة اثناء أسبوع القانون الإسلامي وما جرى في شأنها من مناقشات أوضحت بجلاء ما لمبادىء القانون الإسلامى من قيمة لاتقبل الجدال ، كما أوضحت أن تعدد المدارس والمذاهب داخل هذا النظام القانونى الكبير إنما تدل على ثروة من النظريات القانونية والفن البديع ، وكل هذا يمكن هذا القانون من تلبية جميع الحاجيات العصرية ـ يبدون الرغبة فى أن يواصل الأسبوع أعماله كل سنة ويكلف مكتب الأسبوع بوضع لائحة بالموضوعات التي يجب ـ عقب المناقشات التي جرت خلال الأسبوع ـ تكون

موضع البحث اثناء الدورة القادمة، ويرجون تأليف لجنة لوضع قاموس للقانون الإسلامي من شأنه أن يسهل الاقبال على تأليف القانون الإسلامي، وان يكون موسوعة للمعارف القانونية الإسلامية مرتبة حسب الأساليب العصرية ».

فبقاء المعجزة، واشتمالها على التعاليم التي لامثيل لها ؛ لأنها تمتاز بالوسطية ومراعاة الطاقة البشرية وتحرى المصلحة وتقرير العدالة والمساواة بين الجميع ـ هذا كله دليل علي أن دعوة الإسلام دعوة عالمية، وأنها خاتمة الرسالات الإلهية ومهيمنه عليها، ولاينكر هذا أو يماري فيه الا كل من ألفى عقله، أو سيطر التعصب عليه وبغى علوا فى الارض وفسادا.

وما دامت دعوة الإسلام عامة وخاتمة الدعوات السماوية فإنها بلا جدال تكون صالحة لكل عصر ومصر، فمباديء هذه الدعوة تخاطب الفطرة البشرية وهي واحدة على مدى الأزمان وفى كل مكان، ولذا لايصح أن يقال انها خاصة بعصر دون آخر وبقوم دون قوم، وبمكان دون مكان، وانما هي للانسان حيث كان، « فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم [1] ».

المســـاواة :

وإذا كان الإسلام رسالة عالمية للناس جميعا فإنه بلا جدال دين وئام وسلام ومحبة ومساواة بين البشر إن هذا الدين لايقيم لدعاوى العنصرية أو الطائفية وزنا ويجعل مناط التفاضل والتمايز بين الناس التقوى والعمل الصالح. « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثي وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير [2] ».

وهذه الآية الكريمة تقرر حقيقة خالدة، وهى وحدة البشرية من حيث نشأتها وغايتها ومصيرها، وهي وحدة تؤكد المساواة المطلقة بين الجميع في الحقوق والواجبات، وتنفى كل دعوي للتفاضل لاتقوم على الاساس الإلهي، وهو التقوى، كما تبين الآية أن الله قد جعل الناس شعوبا وقبائل للتعارف والمحبة والتعاون لا للصراع والخصام.

---

١ ــ الآية ٣٠ في سورة الروم.

٢ ــ الآية ١٣ في سورة الحجرات.

وآفة الحضارة المعاصرة أنها لم تستطيع القضاء على مزاعم العنصرية والطائفية فكان الصراع بين الناس؛بسبب عقائدهم وأجناسهم وألوانهم وسيظل كذلك مادام الانسان ـ على الرغم مما حققه فى ميادين العلم التجريبي ـ لم يتخلص بعد من عقدة الجنس واللون ونظرية الدماء المقدسة التي تجري فى عروق بعض الناس دون بعض .

إن الإسلام بدعوته العالمية ورسالته الانسانية التي اعتبرت الناس جميعا أمة واحدة وبينت أنهم سواسية يتمتعون بحقوقهم المشروعة دون تميز بين فرد وآخر هو السبيل المستقيم للحياة الآمنة المطمئنة التى لا تعرف صراعا بين الطبقات ولاشقاقا بين الأمم والجماعات، والتى يحيـــا فى ظلها كل انسان آمنا على نفسه وماله وعرضه ، متمتعا بحقوقه دون هضم أو ظلم ، محافظا علي واجبه دون تقصير أو اهمال .

ولإيمان المسلمين الاوائل بعالمية الإسلام حملوا أروحهم على أ كفهم وانساحوا فى كل سبيل ، لتبليغ هذا الدين إلى الناس جميعا دون أكراه أو قسر على الإيمان به لانه لا أكراه في الدين، ولم يكن الجهاد فى الإسلام لحمل الناس على الدخول فيه ، وإنما كان وسيظل لدفع الاعتداء وحماية الاهل والوطن وتحقيق الحرية الدينية للجميع ، فمن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر .



المسئولية

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم : إنا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولاً[1] .

ما هي هذه الامانة التي أشفقت السموات والجبال والارض من حملها وحملها الانسان ؟

إنها بلا ريب أمانة ثقيلة تفرض على من تحملها عبئا باهظا ، فلا ترفض السموات والارض والجبال هذه الامانة إلا لانها ذات حقوق تنوءبها تلك الكائنات ، وهي على ما هي عليه من الضخامة والقوة ، فما بال الانسان وهو لا يوازن من حيث الجرم والطاقة بتلك الكائنات تحمل هذه الامانة ولم يشفق على نفسه منها ؟

ولكن ما هي هذه الامانة أولا ؟

للمفسرين[2] والعلماء آراء متباينة في تحديد هذه الامانة وشرح معناها ، بيد أن كل الآراء التي وردت في الحديث عن هذه الامانة تدور في نطاق أنها مسئولية الانسان عن جميع تصرفاته في حياته الدنيا .

إن الانسان هو المخلوق الوحيد الذى يحاسب ويسأل عن أقواله وأفعاله ، لانه مكلف ، ومنحه الله أسباب التكليف والمسئولية ، وما عداه من المخلوقات ليس كذلك فالانسان دون سواه يتمتع بالعقل وحرية الارادة ، وله أن يختار طريقه ضمن نطاق السنن الكونية التى تحيط به ، أما الكائنات الاخري كالجمادات والحيوانات فلا تتمتع بما يتمتع به الانسان، إذ الاولى لا ارادة لها ولا اختيار ، وهي محكومة بالقوانين والسنة الإلهية ، وأما الثانية فتحكمها الغرائز الفطرية ، وهي غرائز مسيطرة ، لا تقوى الحيوانات على مقاومتها والخروج عليها .

---

١ ــ الآية ٧٢ في سورة الأحزاب .

٢ ــ أنظر تفسير القرطبي ــ ١٤ ص ٢٥٣ .

وإذا كانت الكائنات جميعها كما سبق فى الكلام عن الوحدانية تسبح بحمد الله وتخضع له ، فإن ماعدا الإنسان منها إنما يخضع لله بحكم ما فطرت عليه دون إرادة منها ولا اختيار ، والإنسان هو الكائن الذي يؤمن بربه ؛ لأنه اهتدى إليه بعقله وفكره وشعوره ، وجاهد نزواته وشهواته ، فإيمانه من ثم إيمان الاختيار الواعي والإدراك السليم .

ولعل هذا مصدر التكريم للإنسان ، واسباغ النعم عليه ، وتسخير الكون له ، واتخاذه خليفة لله فى الارض .

فالأمانة إذن هي مسئولية الإنسان ؛ لأنه أهل لها ؛ بما اختصه الله بالعقل والإرادة والتمييز بين الهدى والضلال ، ولكن لماذا اوصفه القرآن الكريم بالظلم والجهل ، لأنه تحمل هذه الأمانة ولم يشفق على نفسه منها ؟ .

إن هذا الوصف يعنى من جهة ضخامة المسئولية ، وأن تحملها في صدق يحتاج إلى جهاد دائب ، يقاوم فيه الإنسان كل أسباب الانحراف ، ليظل دائما مستقيما على طريق الله ، وأهلا للقيام بتلك الأمانة المقدسة ، ويعنى من جهة أخرى أن الإنسان حين يفرط في هذه الامانة ولا يلتزم بواجباتها فإنه يظلم نفسه ، ولا يعرف حقيقة طاقته ، فهو لهذا جهول ، وذلك لأن الإنسان على ضعف حوله وقصر عمره يمتاز بقدرات يستطيع بها أن يميز بين الحق والباطل ، والخير والشر ، فإن ضل عن سواء السبيل وقصر في حمل الامانة ، فإنما يضل عن جهل بطاقته أو انحراف بها عن الطريق الذى يجب أن يسلكه ، ولهذا يظلم نفسه ، لأنه ــ بذلك الضلال والتقصير ــ يوبقها ويهلكها.

ومادام الإنسان مسئولا عن كل تصرفاته فإن هذه المسئولية فردية ، فكل امرىء بما كسب رهين ، ولا يتحمل جريرة سواه ، لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وهذه هي العدالة المطلقة التى دعا إليها الإسلام والتى تتخذ عمل الإنسان مناط الثواب والعقاب ، يقول الله سبحانه وتعالى فى الكتاب العزيز : « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لايجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا»[١] ويقول رسول الله صلي الله عليه وسلم لابنته فاطمة رضى الله عنها : يا فاطمة : اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا .

---

١ ــ الآية ٣٣ في سورة لقمان .

فالوالد وهو يرى فى أولاده فلذات كبده لا يغنى عنهم شيئا ، والولد وهو يرى فى أبيه أصله الحامى الحانى لايغنى عن والده شيئا .

فما بالك بسائر الناس ممن لاتجمعهم صلات الأبوة والنبوة ؟ إن هذا يؤكد مسئولية كل إنسان ، وأنه لايغنى عن المرء مال ولا بنون في يوم يفر فيه الناس جميعا بعضهم من بعض ، ولا يصبح لوشائج الدم والعواطف فى ذلك اليوم وجود أو أثر . ومع أن المسئولية فردية غير أنها ذات مجالات متعددة ، ويجب الحفاظ على كل مجالاتها لتؤدى الأمانة كاملة لانقص فيها ولا تقصير .

إن الانسان المسلم يرفض أن يعيش حياة أنانية فردية ، لأنه يؤمن بأن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ، وبأن المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم يحيا المسلم إيجابيا ومسئولا عن نفسه وغيره.

وإذا كان القرآن الكريم قد وصف الأمة الإسلامية بأنها خير أمة أخرجت للناس ، فما ذلك إلا لأنها ترفع دائما راية الحق والعدل ، وتحارب الباطل والظلم ، وتؤمن بالله ، فإذا لم تقم بهذه الرسالة خير قيام ، فلم تأمر بمعروف ، ولم تنه عن منكر ، ولم يكن إيمانها بالله صادقا ، فلن تكون خير أمة .

إن أخطر ما يتهدد المجتمعات البشرية بالفساد ، وينذرها بالاضمحلال أن يتخلى كل فرد عن واجبه في الذود عن الحق ومحاربة الباطل ، ولذا يرى علماء الاجتماع أن الأمم المتحضرة ذات الشوكة والقوة هى التى يكون للرأى العام فيها سلطان وتأثير ، لأنه يقف بالمرصاد لكل انحراف أو فساد ، ولأنه ينير للأمة طريق البناء وسبيل الرشاد ، وقد عرفت الأمة الإسلامية منذ فجر نشأتها ما يسمى بالرأى العام ، فتعاليم دينها تلزمها تغيير المنكر ما استطاع كل فرد فيها إلى ذلك سبيلا ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رأى منكم منكرا فليغيره بيده إن استطاع ، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان .

على أن الرأي العام فى الإسلام تحكمه الغايات المقدسة ، والمبادىء السامية ، إنه رأي ينشد نصرة الحق ولا يبغى من وراء ذلك عرضاً فانيا ، وإنما يبغى رحمة ومغفرة.

وقد حذرنا القرآن الكريم كما حذرنا الرسول العظيم من مغبة الاهمال ، أو التخلى

عن أمانة الدعوة إلى الخير ومقاومة الشر ، ومن ذلك ماروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن أول مادخل النقص على بنى اســـرائيل - كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ، ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال : لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ».

ثم قال : والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً[1] ولتقصرنه على الحق قصراً ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم علي بعض ثم ليلعننكم كما لعنهم[2] .

وروى أيضاً عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما من رجل يكون فى قوم يعمل فيهم بالمعاصى ، يقدرون على أن يغيروا عليه فلا يغيروا الا أصابهم الله بعقاب من قبل أن يموتوا[3] .

وهذه الأحاديث والآيات تبين فى جـــلاء أن السكوت على المنكر والمعصية إثم ومعصية ، وأن الامة التى لايتناهى أبناؤها عن الآثام والشرور ينهار بنيانها ، فقوام الامم الاخلاق ، وحيث تشيع المنكرات فى أمة ولا تجد من يقاومها ويغيرها ، تذهب الاخلاق ، ومن ثم تذهب الامم ،وفي الكتاب العزيز آية كريمة وهى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل اذا هتديتم[4] »هذه الآية فهمها بعض المسلمين في الصدر الاوئل على غير وجهها الصحيح ، إذ ظنوا أنها تعفى الإنسان من مسئولية الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن الإنسان مادام مستقيما ومهتديا فلا مسئولية عليه قبل من ضل وحاد عن الطريق المستقيم ، وهذا خطأ ، نبه عليه الخليفة الاول أبوبكر الصديق رضي الله عنه ، فقد خطب في الناس قائلا : يأيها الناس انــكم تقرءون هذه الآية «يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » وانكم تضعونها على غير

---

١ ـ أى لتحملنه عليه حملا .

٢ ـ رواه أبو داود والترمذى .

٣ ـ رواه أبو داود .

٤ ـ الآية ١٠٥ في سورة المائدة .

موضعها ، وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان الناس اذا رأوا المنكر فلم يغيروه ـ أو شك الله أن يعمهم بعقابه[1] ».

فالخليفة الأول فى كلمته ينبه الى خطأ فى فهم الآية الكريمة حتى يرعى كل مسلم مسئولية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فهو السياج الذى يقى الامة العثرات والنكبات، وأما هذه الآية الكريمة فالضلال فيها يعنى الكفر والاهتداء يعنى الإيمان ، ومن ثم يكون معنى الآية : « ان المؤمنين لن يضرهم كفر الكفار بشيء ما داموا هم قد هتدوا ، فدعوا الكفار الى الإيمان ، وحذروهم مغبة كفرهم»[2] فالآية تعفى المؤمنين من تبعة ضلال الكفار ما داموا قد أدوا ما عليهم فدعوا الى الإيمان والتزموا حدوده[3].

وبهذا لا تعفى الآية من مسئولية الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ولكنها تؤكدها ، وتحذر من التهاون فيها ، وتبين أن على المسلم أن يدعو غيره إلى الحق ، وينهاه عن الباطل ، ولا عليه بعد ذلك من بأس أو ضرر إذا لم يأخذ سواه بما دعاه إليه .

القضاء والقدر :

والحديث عن مسئولية الإنسان وتكليفه ، ومحاسبته عما يأتى وبذر يقودنا لا محالة إلى الحديث عن القضاء والقدر ، وبيان وجه الحق – فى إيجاز – فى هذا الموضوع الخطير .

والذى لا مراء فيه أن المجتمع الإسلامي فى الصدر الأول لم تشغله مثل هذه القضايا بصورة حادة ؛ لأنه كان على وعي صحيح بتعاليم دينه ، وتطبيق عملى لهذه التعاليم ، ولم يكن يخوض في قضايا تنأى به عن بساطة الإسلام ، وتورثه الشك والخلاف ، يضاف إلى هذا أن نشاط الزنادقة والذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويحاولون النيل من الإسلام وتعاليمه تحت ستار العلم والبحث ، – لم يكن هذا النشاط قد اتسع وأثر فى الحياة الفكرية الإسلامية تأثيراً واضحاً .

---

١ ــ رواه أصحاب السنن الاربعة وأحمد في مسنده .

٢ ــ من هدى السنة ص ٦٩ .

٣ ــ المصدر السابق .

وخلاصة القول فى موضوع القضاء والقدر ، أن كلمة القضاء وردت فى الكتاب العزيز بمعنى حكم الله ، كما فى الآية الكريمة : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه[1] » ، وقوله: « واذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون »[2] ؛ أى اذا حكم بوجود شيء وأراد كونه .

وقد يطلق القضاء على إتمام الفعل كقوله تعالى : « فقضاهن سبع سماوات فى يومين »[3] ، وعلى الإخبار كقوله تعالى : « وقضينا إلى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين »[4] .

أما القدر فمعناه التقدير ، أى الترتيب والتنظيم ووضع الحدود التى ينتهي اليها الشيء ومنه قوله تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر »[5] .

وطوعا لهذا يكون معنى قولنا كل شيء بقضاء الله وقدره أن كل شيء يقع فى هذا الكون يخضع لحكم الله وقوانينه العادلة، وأنه لا شيء يقع صدفة أو جزافاً أو عشوائياً.

وهذا المفهوم للقضاء والقدر لا يسلب المرأ حريته وارادته ، فقد قضى الله وقدر أن يخلق الإنسان ذا عقل وتفكير وتميز بين الخير والشر ، وأناط مسئوليته عن جميع تصرفاته بسبب ما أنعم عليه به ، فإذا حرم الإنسان أسباب المسئولية لأمر ما لم يعد مكلفاً ولا محاسباً ، وصدق الله العظيم إذ يقول : « لا يكلف الله نفساً الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت »[6] .

فإذا أدركنا أن علم الله محيط بكل شيء وقع أو لم يقع بعد ، « ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب »[7] .

---

١ ـــ الآية ٢٣ في سورة الاسراء .

٢ ـــ الآية ١١٧ في سورة البقرة .

٣ ـــ الآية ١٢ في سورة فصلت .

٤ ـــ الآية ٤ في سورة الاسراء .

٥ ـــ الآية ٤٩ في سورة القمر .

٦ ـــ الآية ٢٨٦ في سورة البقرة .

٧ ـــ الآية ٧٠ في سورة الحج .

« يعلم ما يَلِج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور . وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم ، عالم الغيب ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين »[1] . اذا أدركنا هذا ، وعرفنا أنه سبحانه لا يطلع على غيبه أحداً الا من ارتضى من رسول فإن الإيمان بالقضاء والقدر يصبح مصدر قوة للانسان ، قوة لحفز العزائم الى الخير ، وتربى الشجاعة فى القلوب ، والعزة فى النفوس ، والأخلاق العظيمة فى السلوك ؛ لأن الإيمان بالقوانين والسنة الإلهية ، وأن الحياة الإنسانية مرحلة اختبار وابتلاء ، ولا تخلو من محن وشدائد يحول بين الإنسان والبطر بالنعمة أو الجزع الهالع عند المصيبة ، ومصداق ذلك قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا فى أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور »[2] .

وبذلك يتضح أن محاولة الإنسان الهروب من المسئولية أو عجزه عن القيام بعمل ما أو ضعفه عن مواجهة شدائد الحياة ومصائبها هي التى أضفت على القضاء والقدر مفهوما غير صحيح ، ولذا لا يجوز لنا أن نحتج بالقدر لعمل أقدمنا عليه ، ولا لفعل أحجمنا عنه ، وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه أتي اليه بسارق ، فقال له : ما حملك على السرقة ؟ فقال : قضاء الله وقدره ، فضربه ثلاثين سوطا ، ثم قطع يده ، وقال له : قطعت يدك لسرقتك ، وضربتك لكذبك على الله[3] .

وقد نعي القرآن الكريم على المشركين احتجاجهم بالقدر لتمسكهم بالشرك ، ووبخ من يحتجون به للاقدام على شر ، أو الاحجام عن خير ، قال تعالى : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون ، قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين »[4] .

---

١ ــ الآية ٢ ، ٣ في سورة سبأ .

٢ ــ الآية : ٢٢ ، ٢٣ في سورة الحديد .

٣ ــ مذكرات في علم التوحيد للأستاذ على حسب الله ص ٦٣ .

٤ ــ الآية ١٤٨ ، ١٤٩ في سورة الانعام .

وأخيراً فإن الإنسان استرعاه ربه في هذه الحياة الدنيا ، استرعاه على نفسه وأهله وعامة الناس ، وهو مسئول عما استرعاه ، مادام أهلا للمسئولية ؛ لترفرف دائماً في دنيا البشر أعلام الحق والعدل والفضيلة والوئام ، فضلا عن أن هذه المسئولية مناط تكريم الإنسان وتسخير الكون له ، كما أنها مصدر الخيرية للأمة الإسلامية ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ يقول : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

المسئولية الجماعية :

على أن المسئولية وان كانت فردية فهى مع هذا جماعية من حيث ارتباط الفرد بالمجموع ارتباط الاعضاء بالجسد ، واللبنة بالبناء بالإضافة الى أن الشريعة الغراء عرفت ما يسمي بفروض الكفاية ، وهى تمثل لونا من ألوان المسئولية الجماعية ، فهى تجب على الأمة في مجموعها ، بمعنى أنه اذا قام بها البعض سقط الإثم والحرج عن الباقين ، وان لم يقم بها واحد أو مجموعة من الأمة أثمت الجماعة كلها ، وأصبحت مسئولة عن التفريط في هذه الفروض ، وذلك مثل صلاة الجنازة وتخصص كل طائفة من الأمة في فرع من فروع العلم المختلفة حتى يكتمل البنيان العلمى للجماعة ، فلا يعرف التخلف اليها سبيلا ، وتظل أبداً في مركز الريادة والقيادة .

ومن صور المسئولية الجماعية رعاية الفقراء والمحتاجين والمرضي والفارمين[1] ومن فى حكمهم ، فهؤلاء يجب على الامة العناية بهم ، ومديد المساعدة اليهم ، فإن قصرت في أداء هذا الواجب كانت آثمة وظالمة والله لا يحب الظالمين ، وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله »[2] .

وقد أفتى الامام ابن حزم بأنه اذا مات رجل جوعا في بلد اعتبر أهله قتلته ، ثم أخذت منهم دية القتل[3] .

---

١ ـــ الفارم هو المدين في غير معصية ويعجز عن سداد دينه وهو أيضاً الذي ينهى خلافاً بين اثنين بدفع بعض ماله لاحدهما أو الذي يجود بماله في سبيل الحامد ، فيفتقر بسبب ذلك .

٢ ـــ المسند للامام ابن حنبل جـ ٢ ص ٣٣ . والعرصة يقصد بها الحي أو القرية .

٣ ـــ المحلى جـ ١٠ ص ٥٣٢ .

وهكذا يتضح أن المسئولية التى تعد ركيزة من ركائز البناء العقائدى للاسلام فردية في أصل فرضيتها ، وجماعية من حيث أثرها ، وتكافل الامة الشامل بين جميع أبنائها فى كل الميادين ، وهذا يؤكد وحدة الامة وأخوتها ، ومسئولية كل فرد فيها تجاه الآخرين ، كما يؤكد أن الفردية أو السلبية ليست من خلال المؤمنين ؛ لأن المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً ؛ ولأن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .

*

مفهوم العبادة

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز : « وما خلقت الجن والإنس الا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين »[1].

هذه الآيات الكريمات تقرر في وضوح الغاية من خلق الجن والإنس وهي عبادة الله والصلة الدائمة به ، كما تقرر حاجة الجن والإنس للخالق جل وعلا ، وأنه سبحانه غني عن مخلوقاته ، وهم الفقراء اليه « يأيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد»[2] وجاء فى الحديث القدسي : يا عبادى انكم لم تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد مازاد ذلك في ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً[3] .

واذا كان الله سبحانه له هذا الغنى المطلق فلماذا اذن كلف عباده أن يعبدوه ويطيعوه[4] .

ان الحق تبارك وتعالى خلق الإنسان وهو أعلم به ، وبما ينفعه في دنياه وأخراه وكتب عليه ما كتب رحمة به وابتلاء له واستكمالا لخصائص خلافة الله في الارض ، تلك الخصائص التى انفرد بها الانسان ، وتميز بها على جميع المخلوقات حتى الملائكة الذين لا يفترون عن العبادة ، ولا يعصون ربهم ويفعلون ما يؤمرون .

ومادام الإنسان عبداً لله ، وخليفة له فى الأرض ، وفى حاجة الى ما فرض الله عليه ؛ ليكون عبداً عابداً ، فإن حياته لا جدوى منها اذا لم تكن تعبيراً صادقاً عن معنى العبودية الخالصة لله والصلة الدائمة به ، وان كل أعمال الانسان يمكن أن تكون طاعة وعبادة اذا استشعر المرء رقابة الله عليه ، وتوجهت نيته بكل تصرفاته نحو الحق

١ ــ الآية ٥٦ ــ ٥٨ في سورة الذاريات .

٢ ــ الآية ١٥ في سورة فاطر .

٣ ــ رواه مسلم .

٤ ــ العبادة في الإسلام للدكتور يوسف القرضاوي ص ٣٥ .

تبارك وتعالى ، وبذلك يتسع مفهوم العبــادة فى الإسلام ليشمل كل تصرفات الانسان ما جل منها وما هان ، وما بدا فى نظره دنيويا محضا كالأكل والشرب والنوم واللهو المباح بشرط أن تصحب هذه الأعمال نية العبودية لله ، والصلة الدائمة به .

وهذا يعنى أن مفهوم العبادة فى الاسلام ليس مقصوراً على ما افترضه الله علينا من العبادات المعروفة كالصـــلاة والصيام والحج والزكاة ، وأن المسلم بهذا المفهوم الشامل الـكامل للعبادة فى الاسلام يحقق فى حياته معنى العبودية لله ، والخضوع لبارئه فيما أمر ونهى ، ويصبح كذلك مسئولا عن جميع أقواله وأعماله ، وهذه المسئولية هي مناط الثواب والعقاب يوم الدين .

ويمكن القول بأن هناك مفهوماً خاصاً للعبادة ومفهوماً عاماً لها ، ويتمثل المفهوم الخاص فى العبادات المفـــروضة والتى تعد من أركان الاسلام التى نص عليها الحديث الشريف « بنى الاسلام على خمس : شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا »[1] .

وأما المفهوم العام فهو الذى أومأت اليه آنفاً ، وهو ينسحب على كل تصرفات الانسان مادامت نية التقرب إلى الله مهيمنة عليها .

والعلاقة بين المفهومين علاقة امتزاج وثيق ، لأن العبــادات المفروضة إذا لم تثمر ثمرتها فى طبع كل نشاط الإنسان بطابع العبودية الصادقة لله ، والخشية الدائمة له ، فهي مجرد رسوم شكلية لا خير فيها ، ولا فائدة منها ، فالمسلم الذى يقف بين يدى الله فى صلاة من الصلوات المفروضة يجد نفسه بعد الانتهاء منهـا فى انتظار صلاة أخرى، وهو فى هذا الانتظار يعيش لحظات التهيىء والترقب للوقوف بين يدي الله مرة ثانية ، وفى هذه اللحظات أو الساعات التى تفصل بين صلاة وصلاة ، يعيش المسلم وكأنه فى صلاة ، فانتظار الصلاة كالصلاة من حيث الاحساس برقابة الله ، وهذا الاحساس هو الذى يحقق فى الإنسان معنى العبودية لخالقه ، ويحيل النشاط البشرى كله إلى طاعة وعبادة .

والذى أود الاشارة اليه أن اطلاق كلمة عبادات على الصلاة والزكاة والصيام والحج ، واطلاق كلمة معاملات على البيع والشراء وما يدور فى فلـكها من التصرفات — هذا

---

١ — رواه البخارى .

الاطلاق لم يكن معروفا ، أو مألوفاً فى القرون الأولى ، وما كانت المؤلفات الفقهية فى تلك القرون تقول : هذا كتاب أو باب فى العبادات ، أو هذا كتاب أو باب فى المعاملات ، وإنما كانت تتناول موضوعات الفقه كلها على حد سواء ودون نعتها بوصف خاص ، اللهم إلا ما يتصل بكل موضوع ، فهذا مثلا باب للصلاة ، وآخر للشفعة وثالث للزواج .. الخ وقد جد ذلك الاطلاق فى العصور المتأخرة ، ومع أن المقصود الأول به كان مجرد التقسيم الفنى الذى هو طابع التأليف العلمي ، غير أنه أنشأ فيما بعد آثارا سيئة فى التصور تبعته بعد فترة آثار سيئة فى الحياة الإسلامية كلها ؛ إذ جعل يترسب فى تصورات الناس أن صفة العبادة انما هي خاصة بالنوع الأول من النشاط الذي يتناوله فقه العبادات ، على حين أخذت هذه الصفة تبهت بالقياس الى النوع الثاني من النشاط الذي يتناوله فقه المعاملات .

ان ذلك التقسيم مع مرور الزمن – جعل بعض الناس يفهمون أنهم يملكون أن يكونوا مسلمين اذا هم أدوا نشاط العبادات وفق منهج آخر لا يتلقونه من الله .

وهذا وهم كبير فالاسلام وحدة لا تنفصم ، وكل من يفصمه الى شطرين على هذا النحو فإنما يخرج من هذه الوحدة ، أو بتعبير آخر يخرج من هذا الدين .

ان الإسلام دين يحكم تصرفات المسلم كلها فى علاقته بالله تعالى ، وفى خاصة نفسه وفى صلته بأسرته ، وفى صلته بالمجتمع الذى يعيش فيه ، كما يحكم علاقات الدولة الاسلامية بغيرها من الدول ، ومن هنا كان الاسلام ديناً ودولة عقيدة وشريعة [1] ، وإن حاول بعض المغرضين والحاقدين أن يذهب الى أن الاسلام عقيدة دينية فحسب ، ولا شأن لها بتنظيم المجتمع ووضع الأصول والمبادىء التى تحكم النشاط الانساني كله ، ويقوم على الوحدة فى تنفيذ فرائضه فإن العمل فى المتجر أو الحقل أو المصنع أو طلب العلم أو سوى ذلك من ضروب السعى في الأرض ، طلباً لأنعم الله عبادة لا تقل درجة عن الزكاة والصلاة ، والأكل والشرب عبادة إذا كانا دون اسراف ، ووسيلة لمد الجسم بالطاقة التى تدفعه الى الجهاد فى سبيل الله .

والنوم واللهو المباح طاعة وعبادة اذا كانا وسيلة لاعطاء البدن حظه من الترويح

---

١ – انظر الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت .

والاستجمام ؛ ليكون أقدر بعد ذلك على السعي والعمل ، والعلاقة الزوجية الخاصة عبادة اذا قصد بها الاعفاف والنسل الصالح ، وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه : وفي بضع[1] احدكم صدقة ، قالوا : أيأتي احدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ قالوا نعم ، قال : كذلك اذا وضعها في الحلال كان له أجر »[2] .

والكلمة يتفوه بها الانسان اذا كانت احقاقاً لحق أو ازهاقاً لباطل فهي عبادة وجهاد ، واصلاح ذات البين والتأليف بين القلوب ، ونشر الوئام والسلام بين الناس والتعاون على البر والتقوى عبادة وطاعة ، وهكذا يعبد المسلم ربه في حياته كلها في أقواله وأفعاله ، وعمله وراحته ، ويقظته ومنامه .

ولأن المسلم في كل شئونه يعبد الله يقبل على عمله برغبة صادقة واخلاص لا يشوبه شرك أو رياء ، وحرص على الاجادة والاتقان ما استطاع الى ذلك سبيلا ؛ لأنه يؤمن بأن الله طيب ولا يقبل من الأعمال الا ما كان طيباً ، وأنه سبحانه يحب اذا عمل الانسان عملا أن يتقنه ، وأنه يحب معالي الأمور ويكره سفسافها ؛ ولذلك يخلص في عمله اخلاصاً صادقاً ، لا خوفاً من سلطان أو قانون ، ولكن خوفاً من الله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، وهذا هو سر سعادة البشرية وتقدمها في ظل الاسلام ، ومرد ذلك الى الارتباط الحميم بين نشاط المسلم اليومي وعقيدته ، ولذلك كان للقوانين الاسلامية في المجتمع الاسلامي منزلة فريدة تتميز بالقداسة والهيبة ، والأخذ بها رغبة وطواعية .

إن كل قانون لا يرتبط بعقيدة الانسان لا يلقى الاحترام والتقدير الا بمقدار سطوة السلطة التي ترعى هذا القانون وتفرضه على الناس ، وهذا يفسر أهم أسباب الخروج على القوانين الوضعية على الرغم من العقوبات الصارمة التي يتعرض لها الخارجون على هذه القوانين .

وبعد ، فبحسب المسلم أن ينظر الى نفسه على أنه خليفة لله في الأرض مهمته أن

---

١ ــ البضع : الجماع أو الفرج نفسه .

٢ ــ صحيح مسلم .

ينفذ أمره ، ويقيم حدوده ، ويعلي كلمته ، ويقوم بواجب العبودية له تعالى ، بحسبه ذلك لتصطبغ أعماله كلها بصبغة ربانية ، وليكون ما يصدر عنه من أقوال وأفعال وحركات وسكنات عبادة لله رب العالمين [١] » .

وهذا هو المفهوم الشامل للعبادة ، وهو الموافق لما تعطيه الآية الكريمة من معنى كبير ، « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » ، فأين هى العبادة التى جعلها الله غاية لخلقهم اذا حصرنا معنى العبادة في تلك الشعائر التى لا تستغرق الا دقائق معدودات من يوم الانسان وليلته، أما جل الوقت ففى معترك الحياة [٢] .

هذا عرض عام موجز لركائز البناء العقائدي للاسلام ، ومنه يمكن استخلاص النتائج التالية :

أولا : ان العقيدة الاسلامية قوامها الوحدانية بمفهومها الصحيح الذى يحرر الانسان تحرراً كاملا من عبودية غير الله .

ثانياً : ان الرسالات الإلهية كلها واحدةمن حيث الأصول العامة ،ومن ثم يجب الايمان بجميع الرسل والانبياء .

ثالثاً : ان البشرية واحدة في أصل نشأتها وغايتها ومصيرها ، ولهذا كان الناس قاطبة سواء في الحقوق والواجبات ، وكان المقياس السليم للتفاضل بين الناس هو المقياس الالهى « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

رابعاً : يختلف الاسلام عن سائر الأديان السماوية من حيث عمومه واستمراره ، ولذا كان صالحا لكل زمان وكل مكان .

خامساً : الجهاد في الاسلام وسيلة للحماية وارهاب أعداء الله وتبليغ الدعوة الخاتمة للناس كافة لا لإلزامهم بها ؛ لأنه لا اكراه في الدين .

سادساً : ان مسئولية الانسان من جميع تصرفاته مناطها العقل وحرية الاختيار

---

١ ــ العبادة في الاسلام ص ١٥٢ .

٢ ــ المصدر السابق .

سابعاً : إن الرأى العام في الاسلام تحكمه المبادىء والغايات المقدسة ، وهو السياج الذى يقى المجتمع العثرات والزلات .

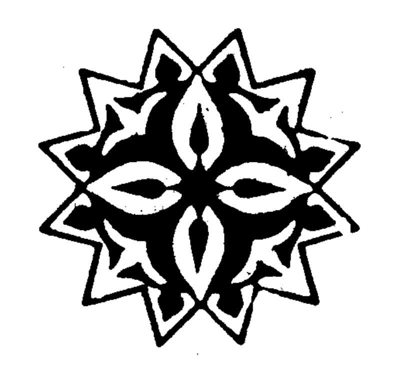
ثامناً : ان الايمان بالقضاء والقدر قوة تحفز الى الخير والعمل وليس صحيحاً أن هذا الايمان يسلب المرء حريته واختياره ومسئوليته عن كل ما يصدر عنه .

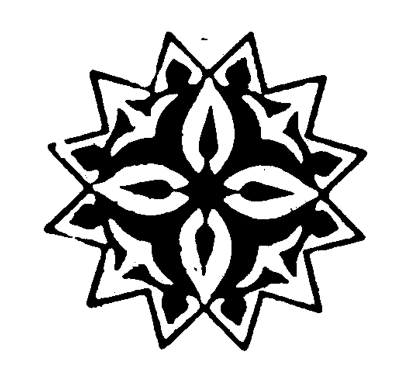
تاسعاً : الغاية من خلق الجن والانس إفراد الله بالعبادة وهو سبحانه غنى عن مخلوقاته ، والكل في حاجة اليه .

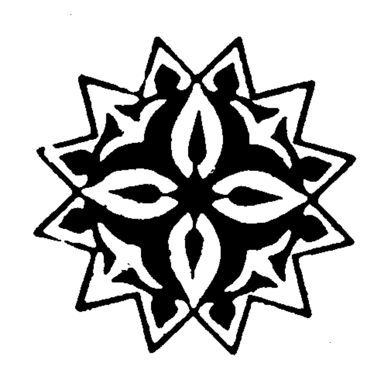
عاشراً : يعبد المسلم ربه فى كل حالاته اذا ما استشعر رقابة الله عليه ، وبذلك يكون عبداً عابداً لخالقه .

وبهذه المبادىء ونحوها صاغت العقيدة الاسلامية الشخصية الانسانية صياغة جديدة فانطلقت قوة رائدة في جميع المجالات تؤكد ان الاسلام شريعة الحياة ودين الانسانية قاطبة .

*



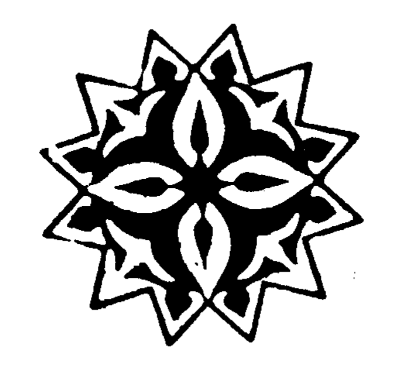




الباب الثالث

مصادر التفكير في الإسلام

تمهيد
١- الكتاب
٢- السنة
٣- الاجتهاد



تمهيد

من القضايا التي يكاد يجمع عليها المؤمنون بالإسلام وغير المؤمنين به أن هذا الدين دين التفكير والنظر ، ودين العلم والمعرفة ، وأنه يحترم العقل الإنساني كل الاحترام ، ويجعله مناط التكليف والثواب والعقاب .

إن الإسلام يحض على التفكير وينزله منزلة الفريضة[1] ، فالقرآن الكريم ـ دستور الاسلام ومعجزته الخالدة – يدعو فى آيات كثيرة إلى النظر فى الأنفس وفي خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وغير ذلك مما أبدع الله فى هذا الكون الفسيح ، ويتخذ هذا النظر سبيلا للايمان الصحيح والعقيدة الراسخة ، ومن ثم يصف هؤلاء الذين ألغوا عقولهم واتبعوا آباءهم دون اقتناع عقلي ، فهو التقليد الأعمى – يصف هؤلاء بأنهم كالأنعام أو أضل سبيلا .

واحترام الاسلام للعقل وحضه على التفكير أمر يتلاءم مع خصائص هذا الدين القويم ، فهو خاتم الرسالات الإلهية ، ودعوة الله للبشرية كافة ، بالاضافة إلى أن تعاليمه جاءت فى صورة قواعد عامة وأصول كلية ، ولذا كان التفكير أمراً لا بد منه للاجتهاد والتجديد ، وتطبيق الأحكام الاسلامية فى كل زمان وكل مكان ، وإثبات صلاحية تلك الأحكام دون غيرها للناس جميعاً مهما تتباين عصورهم وديارهم .

ومصادر التفكير فى الاسلام ترجع كلها إلى الكتاب العزيز ، فهذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قد فتح أمام العقل البشرى مجالات البحث والدرس ، ولا يتضمن أي حكم من الأحكام يشل حركة العقل فى سيره وتقدمه ، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها وعند من رآها طلبها[2] ، ولهذا كان القرآن

---

١ – انظر التفكير فريضة اسلامية للمرحوم الاستاذ عباس محمود العقاد ، والعقل المؤمن للاستاذ عبد المنعم خلاف .

٢ – انظر الفلسفة القرآنية للمرحوم الاستاذ عباس محمود العقاد .

الـكريم إنقاذاً للبشرية من خرافات الجهل والأمية ، كما كان إنقاذاً لها من ضلات الشرك والجاهلية .

ومع أن القرآن الـكريم هو المصدر الأول للتفكير فى الاسلام وترجع إليه المصادر الأخرى تعد السنة النبوية الشريفة المصدر الثانى ، فهى مبينة للـكتاب وشارحة له ، كما يعد الاجتهاد المصدرالثالث كذلك ، وان كان يقصد به هنا الاجتهاد فى مجال الأحكام الخاصة ببيان الحلال والحرام ؛ فهذا الاجتهاد يعتمد على الـكتاب والسنة ، ويستهدى روح الاسلام وقواعده العامة .

والحديث عن هذه المصادر فى تفصيل وشمول يحتاج إلى دامة مستقلة ضخمة ، ولا سبيل إليها فى هذا الـكتاب ، ويكفي هنا أن نعرض لطرف من جوانب تلك المصادر ، ومن أراد الاستزادة فعليه بالرجوع إلى الـكتب المتخصصة (١) .

والذي يجب التنبه اليه أن دعوة الإسلام للتفـكير تحكمها أصول هذا الدين ، من حيث أن للعقل ميداناً يجول فيه كما يشاء باحثاً ومنقباً ، وهو ميدانالحياة المادية أماعالم الغيب فلا مجال للعقل فيه ، وعليه الإيمان بما ذكره القرآن عن هذا العالم دون محاولة للبحث عما وراء ذلك فلن يستطيع الانسان مهما بلغ من قوة التفكير أن يصل الى أكثر مما تحدث القرآن و كذلك السنة عنهذا العالم ، والأخلق به أن يؤمن بأن للعقل حدوداً لا يتجاوزها ، والا ضل وفسد ، وهى حدود عالم المشاهدة بما فيه من مجالات للبحث تستنفد طاقات العقل البشري دون اكتشاف كل أسرار هذا العالم المنظور ، وهو بهذا لا يقحم العقل فى ميدان ليس أهلا له ، ويريحه من عناء التفـكير - بلا طائل — فى مسائل لا طاقة له بها ، فيصبح أقدر على الابداع والإنتاج في عالم المشاهدة .

وليس هذا حجرا على العقل ، ولـكن حماية له من الغرور والادعاء ؛ ليبقى دائماً الشعلة المضيئة الهادية التى تقود الانسان الى طريق الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة .

وفيما يلى نبذة موجزة عن مصادر التفـكير في ديننا الحنيف .

---

١ — انظر مثلا : التعريف بالقرآن والحديث للمرحوم الشيخ محمد الزفزاف وفي علوم القرآن وفى علوم الحديث للدكتور صبحي الصالح ، وأصول الفقه للمرحوم الشيخ محمد أبو زهرة ، والاجتهاد في الفقه الاسلامي للمؤلف .

الكتاب

إذا اطلقت كلمة الكتاب في عرف المسلمين يراد بها القرآن الكريم ، غير أن القرآن لا يطلق الا على كلام الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، والكتاب يطلق عليه وعلى غيره .

على أنه لم يشتهر كتاب في العالم كما اشتهر القرآن الكريم ، ولهذا لم يكن الناس بحاجة الى تعريفه ، ومع هذا لجأ بعض العلماء الذين تحدثوا عن العلوم القرآنية الى تعريف القرآن ، كما عرفه أيضاً علماء الأصول ،ومن هذه التعاريف أن القرآن :هو كلام الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين والمكتوب فى المصاحف والمنقول الينا بالتواتر .

وكل من الكتابة في المصاحف والنقل الينا بالتواتر — لا يدخل في حقيقة القرآن ؛ لأن في زمن الرسول كان القرآن قبل أن يكتب في المصاحف ومن قبل أن ينقل الينا بالتواتر وانما ذكرا في التعريف ، لأن المقصود تعريف القرآن لا مثالنا ممن لم يشاهد الوحي ولم يدرك زمن النبوة والقرآن لا ينفك عن الكتابة في المصاحف ولا عن النقل بالتواتر ضماناً لحفظه ، ونقله الى الأجيال المتعاقبة [1] :

تاريخ القرآن :

من المسلم به ان القرآن ابتدأ نزوله في ليلة القدر من ليالى شهر رمضان على رأس الأربعين من سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أول ما نزل قوله تعالى : اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم — وقد نزل القرآن منجما بحسب الوقائع والأحوال فى نحو ثلاثة وعشرين سنة وقد بين القرآن سر هذا التنجيم فى موضوعين منه .

١ — قوله تعالى : «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا [2] ». أي أنزلناه مفرقاً ليقوى فؤادك على حفظه وفهمه،

---

١ — انظر القرآن الكريم لاستاذنا الاستاذ على حسب الله ص ٤ .

٢ — الآية ٣٢ في سورة الفرقان .

إذ كان النبي أميا لا يعرف القراءة والكتابة ومن العسير على مثله أن يحفظ القرآن جملة واحدة[1] .

٢ - قوله تعالى : «وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا»[2] ؛ أي انزلناه مفرقاً لتقرأه على الناس على مهل وتؤدة فيكون ذلك أيسر لحفظ الناس اياه وأعون على فهمهم له وعملهم بما فيه[3] .

تبليغ القرآن :

كان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصاً على تبليغ ما أنزل الله عليه الى الناس وتعليمهم اياه عملا بقوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته[4] » فكان صلى الله عليه وسلم يقرؤه على من حضر ويبعث من حفظته من يعلمه لمن يرغب ، وقد اقبل أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم جادين على حفظ القرآن ، فكان منهم من يحفظ كل ما نزل ومنهم يحفظ بعضه ، وكانت عنايتهم بالتلقى والحفظ أكثر من عنايتهم بالكتابة .

كتابة الوحى :

وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب للوحى يأمرهم بكتابة ما ينزل منه عند نزوله ومن هؤلاء زيد بن ثابت وعلى بن أبي طالب وعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وأنس بن مالك وأبي بن كعب وقد كان هؤلاء الكتاب على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم يكتبون الآيات القرآنية فى العسب وهو جريد النخيل يكشط خوصه ويكتب على ما استعرض منه ، والاقتاب وهو ما يوضع على ظهر البعير ويركب عليه ، وهو من الخشب ، واللخاف وهي صفائح من الحجارة الدقاق ، والاكتاف وهو عظم الكتف من الإبل والغنم ، والرقاع وهى الصحيفة من الجلد أو الورق .

---

١ — القرآن الكريم ص ٣٢ .

٢ — الآية ١٠٦ في سورة الاسراء .

٣ — القرآن الكريم ص ٣٢ .

٤ — الآية ٦٧ في سورة المائدة .

وهــذا يدل على أن عناية المسلمين بالقرآن حفظا وكتابة بدأت من عهد الرسول الكريم، وهذا أمر طبيعي فالقرآن هو الأصل الأول للتشريع الإسلامي وذلك يقتضى أن يحفظ من التحريف والضياع حتى لا يكون كالكتب السابقة فيما أصابها من ذلك فهو آخر كتــاب ينزل ، فاذا اعتوره شيء من ذلك انحرفت الشريعة إلى الأبد ؛ لعدم مجيء هداية بعده ، ولذلك صرح الله أتم تصريح وأوكده بحفظه ، حيث يقول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » والجــدير بالإشارة إليه أن كتابة القرآن في عهد رسول الله صلي الله عليــه وسلم لم تكن في مصحف واحد بل كان صحفا مفرقة من عسب ولخاف واكتاف كما أومأت آنفا لايند عنها شيء من القرآن وكان هناك عدد كبير من الصحابة قد حفظ القرآن كله ، ولــكن بعد أن قبض صلي الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلي وارتد عن الإسلام من ارتد وقاتل أبو بكر المرتدين قتل من القراء وهم حفظة القرآن خلق كثير وعلم عمر بذلك فخشي أن يضيع القرآن بموت حفظته فأشار علي أبي بكر بجمع القرآن وكتابته ،خوفا عليه من الضياع وتردد الخليفة الأول فيما أشار به عمر غير أنه وافق في النهــاية وأرسل إلى زيد بن ثابت وأمره بكتابة القرآن وضم إليــه من الحفاظ الموثوق بحفظهم أبي بن كعب وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان فأخــذوا يوالون الاجتماع حتى جمعوا القرآن ، وكان أبي بن كعب يملي وزيد يــكتب وقد جاء في موطأ الامام مالك أن القرآن جمع في عهد أبي بكر في قراطيس، كما روي عن ابن شهاب أن الذين كتبوا القرآن في عهد أبي بكر كتبوه في الورق .

وبذلك يمكن القول بأنه قد تم للمسلمين في عهد الخليفــة الأول كتابة نسخة كاملة من القرآن الــكريم انتقلت بموته إلى عمر ثم إلى ابنته حفصة .

وفي عهد عثمان بن عفان اختلف المسلمون في القرآن ، وكان مصدر هذا الاختلاف القراءات القرآنية التي أباح الله للعرب القراءة بها ، ولم تــكن هذه القراءات الا تيسيرا على الناس ولاتعني تغيرا في الألفاظ والــكلمات .

ويضاف الى هذا أن الصحابة الذين تفرقوا في الأمصار وأخذ الناس عنهم القرآن لم يكونوا جميعا من قبيلة قريش وكانت لهم لهجاتهم في القراءةالتي تختلف عن لغة قريش التي نزل بها القرآن ، ومن ثم تعصب أهل كل مصر للقراءة التي قرأ بها من نزل بهم من الصحابة، وازداد خطر هذا التعصب في زمن عثمان حتى روي أنه اقتتل الغلمان والمعلمون

فلما بلغ ذلك عثمان قال : عندى يكذبون به ويلحنون فيه فمن نأى عنى كان أشد تكذيبا ولحنا يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إماما .

وقد أرسل عثمان الى حفصة أن ارسلى الينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها اليك ، فأرسلتها اليه فأمر زيد بن ثابت وجماعة فنسخوها في عدة مصاحف وقال عثمان لزيد ومن معه : اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانه ما أنزل الا بلسانهم ، ففعلوا حتى اذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف الى حفصة ، وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق . ولا شك أن عثمان رضى الله عنه قد سد بما فعله باب الفرقة والاختلاف وانما أمر بحرق جميع الصحف والمصاحف الا الصحف التى كانت عند حفصة اذ كان يخشى أن يكون فى بعضها خطأ أو أن تكون في المستقبل سببا للكذب والاختلاف على أصل الدين الإسلامي. أما الصحف التى كانت عند حفصة فهي سليمة من كل ذلك وهي التى نقل منها المصاحف الرسمية وكانوا قد تحروا غاية التحرى في كتابتها عند جمع القرآن في عهد أبى بكر رضي الله عنه .

ويتضح من كل ماتقدم أن أبا بكر كان يقصد من جمع القرآن المحافظة عليه من الضياع بموت الحفاظ ، أما عثمان فكان يريد منع الاختلاف الذى انتشر في عهده .

وظل الخط الذى كتب به المصحف في زمن عثمان هو الخط الذى يكتب به حتى الآن ، والذى يطلق عليه الرسم العثماني مع مافي هذا الرسم من مخالفة لبعض قواعد الإملاء التى نكتب بها اليوم، ولكن المسلمين حافظوا على مافعل عثمان ورفضوا أن يكتب القرآن بغير ذلك الخط محافظة على هذا الكتاب الكريم ، حتى لا يكون عرضة في كل زمان ومكان لتغيير رسمه ، طوعا لتغيير طرق الكتابة وربما أدى هذا الى تحريف أو تبديل لبعض آيات أو كلمات القرآن الكريم .

وجملة القول أن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الصحيح على وجه الأرض ، وهو آية واضحة على أنه من عند الله وأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله ، إنه الكتاب الذى عجزت العرب عن معارضته والإتيان بشيء منه ، وهو الذي هدى البشرية الى طريق التقدم والحياة الإنسانية الكريمة ، وهو وحده سبيلنا الى العزة والحضارة وصدق الله العظيم : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) .

تفسير القرآن[1]

لقد اهتم المسلمون من زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتفسير القرآن الكريم، وكان الرسول عليه السلام هو المفسر الأول لهذا الكتاب العزيز فسره الرسول بسنته القولية والفعلية بالاضافة الى أن العرب كانوا بوجه عام يفهمون الفاظ القرآن؛ لأنه نزل بلغتهم، ولكن الإسلام انتشر فى بلاد كثيرة وسرت العجمة الى اللسان العربي، وأصبحت الحاجة ملحة الى تفسير القرآن حتى يفهمه المسلمون، وقد أقبل العلماء على تفسير القرآن اقبالا منقطع النظير، وحفظ لنا التاريخ ثروة تفسيرية ضخمة لم يحظ بها كتاب غير القرآن الكريم، وهذا آية من آيات حفظ الله لهذا الكتاب وصدق الله العظيم « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ».

ومع تعدد اتجاهات المفسرين يمكن تقسيم التفسير قسمين :

ا) تفسير مأثور .

ب) تفسير بالرأي والاجتهاد .

والتفسير المأثور هو ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة أو عن من عاصر الصحابة من التابعين كالذى روي في الصلاة الوسطى « انه صلى الله عليه وسلم قال يوم الاحزاب : شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر » .

وكان من هذا التفسير نوع رجع فيه السابقون الى أهل الكتاب من اليهود والنصارى وهو تفسير ما سكت عنه القرآن لعدم الحاجة اليه كالذى روى فى أنواع الطير في قوله تعالى : « فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك » وما روى فى لون الكلب الذى صاحب أهل الكهف، الى غير ذلك من الروايات التي تتعلق بوجه عام بما قصه الله علينا للعظة به، وليست هناك فائدة من معرفة تفاصيله، أو استقصاء أحواله .

وبسبب هذا اللون من التفسير المأخوذ عن اليهود والنصارى ـ وهو يسمى بالاسرائيليات ـ ولأن ما نقل عن الرسول والصحابة قليل ولم يشمل كل آيات القرآن احتاج الناس الى البيان والتفسير وبخاصة بعد ظهور الفرق الإسلامية وسريان العجمة الي اللسان العربي .

---

١ ـ انظر القرآن الكريم لاستاذنا الاستاذ علي حسب الله، وقصة التفسير للدكتور احمد الشرباصي.

وقد اختلف العلماء في التفسير بالرأى، فمنهم من منعه ومنهم من أجازه ولكل ادلته ووجهة نظره، ولكن من العلماء من قسم القرآن ثلاثة أنواع :

نوع استأثر الله تعالى بعلمه وهذا لامجال للقول فيه، ونوع علمه الرسول وعلمه الناس، وهو ما يتعلق بتفصيل مجمل من الاحكام أو تخصيص عام أو تقييد مطلق وهذا لايعرف الا من صاحب الشرع :

ونوع يعلم تفسيره اهل اللسان الذى نزل به القرآن، وهذا لا وجهة للمنع منه متى تهيأت وسائله . على أن التفسير بالرأي لايعنى الرأي المحض الذى لايقوم على أساس من التقيد بأحكام الشريعة ولغة القرآن، وهذا التفسير قد تأثر تأثرا واضحا بالثقافة الخاصة للمفسرين؛ فمن غلبت عليه فهم الناحية الفقهية اهتم في تفسيره بشرح الأحكام وبيان آراء الفقهاء فيها، ومن اهتم بالجانب الاعجازى في القرآن غلب على تفسيره الحديث في أوجه بلاغة القرآن، ومن جنح إلى التصوف جاء تفسيره متأثرا بهذا، و .... للخ .... .

اعجاز القرآن :

القرآن الكريم كتاب معجز ، ومعنى إعجاز القرآن عدم قدرة الانس والجن على الاتيان بمثله « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .[1]

وإذا ثبت عجز البشر وغيرهم عن الاتيان بمثل القرآن كان ذلك دليلا علي أن هذا الكتاب العزيز ليس من جنس مايقوله الناس، وانه كلام رب العالمين، فهو لذلك آية الله الخالدة التى أنزلها على خاتم أنبيائه، لتكون آية صدق على رسالته وبعثته .

ولقد تحدى القرآن العرب وهم أرباب للفصاحة والبيان وفرسان الكلام والقريض أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فعجزوا مع حرصهم الشديد على ذلك، مناوأة ومعاداة لهذا الكتاب الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذي سفه أحلام العرب؛ لعكوفهم على عبادة آلهة من الحجر والخشب، وغير ذلك من ألوان الو[illegible] والجاهلية .

---

١ — الآية ٨٨ في سورة الاسراء .

إن القرآن الكريم سيظل الى يوم الدين المعجزة الفريدة التي تتحدى البشرية ، وتدعوها للتى هي أقوم ، وكلما تقدم العلم كشف عن بعض وجوه اعجاز القرآن ، وأكد أن هذا الدستور الإلهي هو الكفيل وحده بالحياة الانسانية السعيدة .

والحديث عن وجوه اعجاز القرآن في تفصيل يحتاج الي دراسة مطولة ، ولاسبيل الى ذلك في هذا البحث الموجز ، وتكفى هنا الإشارة العامة الى أهم سمات هذا الاعجاز ، ومن أراد ان يلم بهذا الموضـــوع فعليه بالرجوع الى بعض المصـادر التي عرضت له واهتمت به ، ومنها القديم والحديث [1] .

وجوه اعجاز القرآن :

اهم وجوه اعجاز القرآن هي :

اولا : الاعجاز البياني . . ويشمل هـذا الاعجاز براعة نظم القرآن ، وفصاحة مفرداته وكلماته وبلاغة تعبيراته وتصويره ، ودلالة الفاظه على معانيه .

لقد جاء اسلوب القرآن متفردا بخصائص لم يألفها العرب في كلامهم ، ولذلك كان هذا الأسلوب نسيج وحـده ، بلغ الغاية في الجزالة والبلاغة ، ولاوجه على الاطلاق للموازنة بين اسلوب القرآن و كلام البشر ، فالموازنة بين شيئين تصح اذا كانا من جنس واحد ، والقرآن شيء وكل مايقوله الناس فى الماضى والحاضر شيء آخر .

ومن يقرأ بعض آيات القرآن بفهم وامعان يروعه مافيه من نظم غريب لم يسبق اليه ولن يلحق به ، ووزن عجيب ، وفصاحـة دقيقة سحرت الباب العرب فأقروا له بالمنزلة العليا ، وانه ليس من جنس ما يقوله البشر ، غـير ان بعضهم عنادا وكفرا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الكريم .

ثانياً : الإعجاز التشريعي . . ويقصد به ماجاء به القرآن من تعاليم وفرضه من تشريعات وقوانين في مختلف شئون الحياة الفردية والجماعية فهذه التشريعات والقوانين

---

١ ـ أنظر مثلا : إعجـــاز القرآن للباقلاني وأسرار البلاغة ، واعجاز القرآن لعبد القاهر الجرجاني ، واعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعى ، ومن بلاغة القرآن للدكتور أحمد أحمد بدوى ، والقرآن المعجزة الكبري للشيخ محمد أبو زهرة .

تمتاز بالكمال ومراعاة الفطرة الإنسانية وصلاحية التطبيق دائماً ، وخلوها من مظاهر الاقليمية والأهواء البشرية كما هو واقع في القوانين الوضعيـــة ، ولذلك جاءت تلك التشريعات للانسانية كلها؛ لتستقيم بها على طريق الخير ولتحيا فى ظلها آمنة مطمئنة ، لاتعرف خوفا او ظلما ، وكم ظهرت تشريعات وضعها الإنسان ، ولكنها اندثرت وتوارت؛ لنقصها وفرديتها وعدم ملاءمتها للتطبيق دائماً .

لقد احدث القرآن الكريم بتشريعاته انقلابا اجتماعيا في حياة البشرية وقادها الى طريق العلم والحضارة ، ولهــذا يجمع كل المفكرين والباحثين بوجه عام على انه لولا القرآن لما وصلت البشرية إلى ما وصلت إليه في العصر الحديث ، وإن كانت قد انحرفت عن سواء السبيل في فهم الحضارة .

ثالثاً . الإعجاز العلمي . . من المسلم به أن القرآن الكريم ليس كتاب علم ؛ بمعنى أن الغرض من انزاله كان وضـــع النظريات والفروض العلمية ، ولكنه جاء للهداية وإنقاذ البشرية من الضلالات والخرافات ، ومع هذا دعا القرآن إلى العلم بأوسع معانيه وشتى ميادينه ، واشتمل أيضا على كثير من الحقائق العلمية التى كانت تعد وقت انزاله ضرباً من المحال من حيث معرفة الانسان بها ، ومن ذلك مثلا : كروية الأرض والرعد والبرق والسحاب الركامي والودق [1] الذي يخرج من خلاله ، وكذلك انعكاس أشعة الشمس على القمر فينير ، ولولا هــذا لظل معتما ؛ لأن الشمس كالسراج نوره من ذاته ، والقمر معتم نوره مستمد من غيره وصــدق الله العظيم « هو الذى جعل الشمس ضيــاء والقمر نورا » [2] .

ويدخل في الإعجاز العلمي ما اشتمل عليــه القرآن من أمور غيبية ، وماقصه من أخبار الأولين والأنبياء السابقين ، فالرسول كان أميــا لايعرف القراءة والكتابة ، ولم يثبت أنه لقي الدارسين لتاريخ الأقدمين وأخذ عنهم ، ولهذا كان ماجاء في القرآن

---

١ — الودق : أي المطر ، والسحاب الركامى : المتجمع بعضه فوق بعض .

٢ — الآية : ٥ في سورة يونس .

من أمور غيبية وإشارات تاريخية وبعض الحقائق العلمية التي أدرك طرفا من أسرارها العلم الحديث آية من آيات الاعجاز، ودلالة من دلائل صدق محمد في دعوته .

وفضلا عن كل ماسلف سلم القرآن على طولة من التناقض والتعارض والاختلاف ، وهذا مما يخالف فيه جميع كلام البشر ، وصدق الله العظيم « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » [1] .

*

١ - الآية : ٨٢ في سورة النساء .

منهج القرآن في بيان الأحكام [1]

للقرآن الكريم منهج فريد في بيان الأحكام، ويقوم هذا المنهج على الاجمال دون التفصيل، ويكتفي في أغلب الشأن بالاشارة إلى مقاصد التشريع وقواعده الكلية دون ذكر لتفصيل أحكام الجزئيات ، ومع هذا تعرض القرآن لبيان بعض الأحكام على وجه التفصيل كأحكام المواريث والأسرة ؛ لأن هذه أحكام لا تتغير بتغير الزمن ولا تختلف باختلاف البيئات . على أن الكتاب الكريم في بيانه للأحكام لم يعبر في كل ما كان واجبا بمادة الوجوب ولا فيما هو محرم بمادة الحرمة ، بل تارة يدل على ذلك بالأمر بالفعل أو النهي عنه كقوله تعالى : « وأنفقوا مما رزقناكم »[2] . « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة »[3] . وتارة يدل على الوجوب أو الحرمة بالاخبار بأن الفعل مكتوب أو مفروض ، أو حلال أو حرام أو موصل إلى الخير ، أو بأنه شر وليس من البر مثل قوله تعالى : —

« إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا »[4] « اليوم أحل لكم الطيبات »[5] « حرمت عليكم أمهاتكم »[6] . « ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير »[7] « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين »[8] .

---

١ — أنظر أصول الفقه الاسلامي للشيخ زكي الدين شعبان .

٢ — الآية : ١٠ في سورة المنافقون .

٣ — الآية ١٩٥ في سورة البقرة .

٤ — الآية : ١٠٣ في سورة النساء .

٥ — الآية : ٥ في سورة المائدة .

٦ — الآية : ٢٣ في سورة النساء .

٧ — الآية : ٢٢٠ في سورة البقرة .

٨ — الآية : ١٧٧ في سورة البقرة .

والقرآن الكريم مع هذا لم ينهج في بيانه للأحكام منهج الكتب المؤلفة التي تذكر الأحكام المتعلقة بشيء واحد في مكان واحد ثم لا تعود إليه إلا بقدر ما تدعو اليه المناسبة، وإنما فرق الأحكام في سوره الكثيرة وكأنه بهذا يوجه أنظار المكلفين إلى أن هذه الأحكام على اختلافها وتنوعها مترابطة يجب العمل بها كلها وعدم الأخذ ببعضها دون بعض، كذلك مزج القرآن في بيانه للأحكام بين الترغيب والترهيب، وهذا من شأنه أن يحمل النفوس على امتثال أمر الله وطاعته في كل ما أمر به.

إن أحكام القرآن لم ترد في صيغة جافة مجردة عن معاني الترغيب والترهيب كما هو الحال في القوانين الوضعية، وإنما وردت في عبارات تخاطب العقل والقلب، وتجمع بين الدنيا والآخرة ولذلك تطاع هذه الأحكام بوازع الضمير قبل وازع السلطان[1].

ومع كل ما تقدم روعي في أحكام القرآن اليسر ورفع المشقة وعدم الحرج فليس فيه ما تضيق به صدور المؤمنين أو يكون في القيام به عليهم عنت وارهاق « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »[2] « وما جعل عليكم في الدين من حرج »[3].

*

١ ــ انظر المعجزة في القرآن للمؤلف ص ٩٧ .

٢ ــ الآية ١٨٥ في سورة البقرة .

٣ ــ الآية ٧٨ في سورة الحج .

السنة

السنة والحديث :

تطلق كلمة السنة لغة على الطريقة ، يقال سنة فلان في عمله كذا اذا أريد طريقته التي يتبعها في هذا العمل، ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم [1] .

كذلك تطلق السنة على القوانين الالهية التي يخضع لها هذا الكون ، ومن ذلك قوله تعالى : «سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا» [2] . فإذا أضيفت السنة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل : سنته كذا ، كان المراد . كل ما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ، فإن ذلك كله يبين طريقته التشريعية أما القول فيمثله كثير مما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده». وأما الفعل فهو كل فعل يصدر منه موضحا لتشريع يأخذ به المسلمون في دينهم كالذي وقع منه في أعمال الصلاة ومناسك الحج الى غير ذلك مما ورد عنه .

أما التقرير فهو أن يكون قد حصل من أصحابه في حضرته أو في غيبته ثم بلغه قول أو فعل فلا ينكره عليهم ، ومن ذلك ما روي أن قومه قد أكلوا الضب على مائدته فلم ينههم عنه ، وإن كان قد امتنع هو عن أكله وقال : أجد نفسى تعافه . . . وكإقراره لعب الحبشة بالحراب في المسجد . . . ونحو هذا .

---

١ – رواه الامام مسلم في صحيحه .

٢ – الآية : ٦٢ في سورة الاحزاب .

وأما كلمة الحديث فإنها إذا نسبت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان معناها القول الذى تكلم به ونقل الى الناس بسبيل ما ، والحديث بهذا المعنى يكون أخص من السنة ؛ لأن السنة تشمل ما كان قولا له صلي الله عليه وسلم أو فعلا أو تقريرا . ولكن من العلماء من جعل الحديث مرادفا للسنة في الدلالة ، ومن ثم لا يكون هناك فرق بينهما[1].

منزلة السنة :

مما لا خلاف فيه أن السنة مكملة للقرآن وهما معا أصل الدين، وقد أشار الرسول عليه السلام إلى ذلك فيما روي عنه حيث يقول . « الا إنى أوتيت القرآن ومثله معه الا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهـــذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله[2] » .

إن مهمة الرسول الكريم لم تكن مقصورة على تبليغ القرآن ، وانما كانت مع هذا تفسير هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد أمر الله باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته حيث قال : « يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »[3] وطاعة الله هى الأخذ بما جاء فى كتابه، وطاعة الرسول هي الأخذ بما يبين لنا من شرائع سواء أ كانت ايضاحا لما اجمل فى كتاب الله ام تشريعا جديدا لم يذكر فيه ، ولكنه يدور فى فلك الأحكام القرآنية والقواعد التشريعية العامة التي جاء بها هـــذا الكتاب العزيز وصدق الله العظيم : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »[4]. ان احكام الصلوات والزكوات وردت فى القرآن مجملة غير مفصلة ، وقد وضحت السنة كل ما يتعلق بهذه الفرائض وغيرها من احكام ، ولهذا كانت السنة مكملة للقرآن ، وكان الأخذ بها امرا ضروريا ،فهي المصدر الثاني للتشريع .

---

١ ـــ انظر التعريف بالقرآن والحديث ص ١٩٤ .

٢ ـ رواه ابو داود وابن ماجه .

٣ ـــ الآية : ٥٩ في سورة النساء .

٤ ـــ الآية : ٧ في سورة الحشر .

رواية السنة في عهد الرسول :

المعروف والمشهور أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأمر بتـدوين سنته كما أمر بتدوين القرآن وذلك خشية اختـلاط القرآن بالسنة ، ولـكن روي أنه أمر بكتابة بعض الأحاديث لبعض الصحابة ، وهذا لظروف خاصة لم يتحقق معها خوف الاختلاط بين القرآن والسنة ، غير أن الصحابة كانوا يهتمون برواية ما يقول الرسول أو يفعله أو يقره ، ومنهم المـكثر والمقل ، ولعل هذا كان بسبب ما يجدون من تحريض الرسول على ذلك ، فقد روى أنه قال : نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه غيره ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه . .[1].

ولهذا كان كثير من الصحابة يحفظ مايسمعه من الرسول ولا يكتبه ، فهم أمة أمية يعتمدون فى كل ما يسمعون على حفظهم ، وقل منهم من كان يكتب . . . إن الصحابة لم يكونوا في الإلمام بالسنة النبوية سواء ، لأن الرسول لم يكن يجمعهم ليحدثهم ، ولكنه كان يتحدث فى بيته وفى المسجد وفى السوق وفى الطريق ، وهو يحارب وهو يعمل مع أهله ، وبالجملة كانت حياته كلها حديثاً وسنة ، ولذا كان هنـاك تفاوت ملحوظ بين الصحابة فى معرفة السنة ، فهناك من عرف بكثرة الرواية والحفظ كأبي هريرة ؛ لـكثرة ملازمته للرسول فى السنوات الأخيرة من حياته ، ومنهم من كان لا يروى إلا الحديث أو الحديثين أو العدد القليل .

رواية السنة في عهد الخلفاء :

لمـا توفي رسول الله صلى عليه وسلم خشي كبار الصحابة من كثرة الرواية ، لأنها قد تؤدى الى اختلاف وفرقة بين المسلمين كما انها قد تفتح باب الكذب فى الرواية ، ولذا كان الخلفاء يشددون فى قبول الحديث وكانوا أيضاً ينهون عن كثرة الرواية ، ولم يكن هذا إلا خوفاً من أن ينفلت الناس فى الرواية فيحدث فيها خلط الصحيح بالسقيم ، لأن هؤلاء الخلفاء كانوا أنفسهم يأخذون بالسنة متى قام الدليل على صحتها .

وهذا التشديد في قبول السنة والنهي عن كثرة روايتها استمر طوال فترة الخلفاء الراشدين ، ولـكن بعد أن آل الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان ، وظهرت فى المجتمع

---

٤ — انظر التعريف بالقرآن والحديث ص ٢٠١ .

الإسلامي فرق وطوائف مختلفة من خوارج وشيعة وزنادقة ، فضلا عما تجدد للناس من شئون اجتماعية يريدون معرفة أحكام الدين فيها كل ذلك أدى إلى أن يحدث فى رواية السنة أمران هامان :

الأول : شيوع الرواية ؛ لأن المتشددين في الرواية كعمر قد ماتوا ، زد على ذلك ما تجدد للناس من حاجات اضطروا لأن يبحثوا عن أحكامها لاتساع المدنية ونشوء نظم جديدة لم تكن معروفة من قبل ولم يكن لهم ملجأ الا لمن بقي من الصحابة ومن عاصرهم من كبار التابعين ، فكانوا يستفتونهم ، فيفتون بما حفظوا من الأحاديث ومن هنا كثرت الرواية بين المسلمين .

الثاني : ظهور الكذب في الحديث ، وكان ذلك بسبب الفرق التي جدت كالشيعة والزنادقة ، فهذه الفرق كانت لهم مبادىء تأبى الا نصرتها ، وما كانوا يتحرجون في سبيل نصرة هذه المبادىء أن يخترعوا الأحاديث اختراعا . . . ولكن هذا الوضع للأحاديث والكذب فيه كان حافزا لعلماء السنة كي يخلصوا المصدر الثاني مما شابه ، فجعلوا همتهم البحث عن حال الرواة من التابعين فمن بعدهم ، ووصف كل منهم بما يستحق من اتقان وضبط وعدالة ولذا صاروا يسألون عن اسناد الأحاديث وكان الناس من قبل لا يهتمون بهذا [1] .

تدوين السنة :

بدأ تدوين السنة بصفة رسمية في مستهل القرن الهجري الثانى حين أمر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز بتدوين السنة ؛ خوفا عليها من الضياع ، بيد أن ما أمر به هذا الخليفة لم يصل إلينا منه شيء وربما فقد ضمن ما فقد من تراثنا العلمى ؛ بسبب الحروب الهمجية كغارات الصليبيين والتتار ، أو بسبب السرقة والاهمال ، ثم شهد منتصف هذا القرن حركة عامية مثمرة فى التدوين كان من أئمتها ابن جريج بمكة ، ومالك وابن اسحاق بالمدينة وابن المبارك بخراسان ، وسفيان الثـــورى بالكوفة والاوزاعى بالشام وغيرهم .

وهذه الحركة العلمية بلغت أوج عظمتها في القرن الثالث ، فقد كان العصر الذهبي لتدوين السنة .

---

١ ــ انظر التعريف بالقرآن والحديث ص ٢٠١ .

ولكن هـذا كله لاينفى أنه كان هناك منذ زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم تدوين للسنة[1] ، فقد كتبت بعض السنن في أيام الرسول عليه السلام وبتوجيه منه أحيانا ، كما كتبت بعض السنن أيضا في عهد الصحابة والتابعين واشتهر من هؤلاء عدد من المهتمين بجمع السنة وروايتها والتحديث بها ، وكان هذا التدوين حين لايخاف اختلاط السنة بالقرآن ، كما كان فرديا وقليلا . ولا يمثل تدوينا شاملا للسنة النبوية ، فلما انتشر العلماء في الأمصار وخيف ضياع السنة لهذا ، ولموت الصحابة واهمال من بعدهم الحفظ ، فضلا عن كثرة الابتداع الذى صاحب بعض الفرق ، والذى نجم عنه الوضع فى السنة والافتراء على الرسول صلى الله عليه وسلم - اهتم العلماء بتدوين السنة تدوينا يقوم على أسس علمية دقيقة ، وقد أشار الى هذا الحافظ ابن حجر فى مقدمة فتح البارى شرح صحيح البخارى اذ يقول : ثم حدث في أواخر عصر التابعين تدوين الآثار وتبويب الأخبار لما انتشر العلماء في الأمصار ، وكثر الابتداع من الخوارج والرافضين ومنكرى الأقدار .

مناهج تدوين السنة :

لم تكن مناهج تدوين السنة سواء ، فقد كانت هذه المناهج متباينة ؛ طوعا لتبويب الأحاديث أو لدقة التحرى في تدوينها .

لقد كان أوائل علماء الحديث يجمعون أحاديث كل باب على حدة غير أنهم كانوا لايتحرون الصحيح منه ، ثم قام بعدهم جماعة من كبار أهل الحديث فدونوا الأحكام مع تحرى الصحيح من الأحاديث ويعد كتاب (الموطأ) للامام مالك فى مقدمة الكتب التى دونت السنة بهذا المنهج ، فقد توخى الامام مالك فى كتابه الصحيح من أحاديث أهل الحجاز ، ومزجه بآراء الصحابة وفتاوى التابعين .

وعلى رأس المائتين من الهجرة قام جماعة من العلماء قصروا تدوينهم للسنة على ماروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمكن حفظه ، وصاروا يجمعون الأحاديث التى يرويها كل صحابي فى باب واحد لايفرقون بين أن يكون في التوحيد أو الصلاة أو في الصيام وكانوا يسمونه المسند فيقولون مسند أبى بكر ومسند أبى هريرة ، ولهذا كان كل مسند مزاجا من الأحاديث لاتنتظمها وحدة الموضوع .

---

١ - أنظر السنة قبل التدوين للدكتور محمد عجاج الخطيب .

ثم جاء بعد هؤلاء طبقة جعلت تدوينها للسنة يتبع الأبواب ، فيجمعون الأحاديث التي تتعلق بموضوع واحد فى باب واحد وان اختلفت الرواة ، وهذه الطبقة تفاوتت في دقة التحرى ولكنهم جميعا كانوا يتحرون الصحيح من الأحاديث ، وأشهر الكتب المدونة في الحديث بالاسناد : صحيحا البخارى ومسلم وموطأ الامام مالك وسنن أبى داود وسنن الترمذى وسنن النسائي وسنن ابن ماجه وسنن البيهقي وسنن الدارمي ومسند الإمام أحمد بن حنبل ، على أن الذى اشتهر بين العلماء من هذه الكتب خمسة : صحيح البخارى وصحيح المسلم وسنن أبى داود وسنن الترمذى وسنن النسائي ، ولكن الإمام الحافظ مجد الدين ابن الأثير ضم اليها سادسا وهو موطأ الإمام مالك ، لأنه جمع كل هذه الكتب في كتاب سماه (جامع الأصول من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم) .

علاقة السنة بالقرآن : (1)

مادامت السنة هى المصدر الثانى للاحكام والقرآن هو المصدر الأول ومادام القرآن فى بيانه للاحكام يجنح الى الاجمال وعدم التفصيل الا فى القليل من المسائل ، فإن السنة النبوية بينت أحكام القرآن الكريم وفصلت ماجاء مجملا منها ، ولهذا تعد السنة مكملة للقرآن من هذا الوجه ، وتصبح العلاقة بينهما علاقة تلازم ، فقد أمر الله نبيه بتبليغ ما أوحاه اليه ، كما أمره بأن يبين للناس ما أنزل اليهم ، وهذا يعنى أن طاعة الرسول من طاعة الله ، وأن ما اشتملت عليه السنة من أحكام يدور في نطاق ماجاء به الكتاب العزيز من التشريعات والفرائض ، ولهذا تقسم السنة من حيث حديثها عن الأحكام ثلاثة أقسام :

أولا : سنة مطابقة أو مؤكدة ، وهي التى قررت أحكاما قررها القرآن الكريم ، وهذا النوع من السنة كثير ، ومنه الأمر بالصلاة والزكاة وغيرهما من الواجبات ، والنهي عن الشرك والخمر وسائر الموبقات والمحرمات ، وبذلك يكون الحكم قد ثبت بالكتاب وأكدته السنة النبوية .

ثانيا : سنة شارحة للقرآن ، وهذه السنة قد تكن مفصلة لمجمل القرآن ، أو مخصصة

(1) السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي للدكتور مصطفى السباعي .

لعامه أو مقيده لمطلقه ، ومن الأول أن القرآن أمر بالصلوات من غير بيان لمواقيتها وأركانها وعدد ركعاتها فبينت السنة العملية ذلك [1] . وقال صلى الله عليه وسلم : (صلوا كما رأيتموني أصلي) وكذلك احكام الحج والصيام والزكاة وسائر ما جاء في القرآن مجملا ، فكانت السنة مفصلة ومبينة له .

ومن الثاني وهو تخصيص عام القرآن ان الله تبارك وتعالى بين فى الكتاب من يحرم التزوج بهن في آيات المحرمات ، ثم اباح التزوج بمن عداهن في قوله تعالى : « واحل لكم ماوراء ذلكم » فخصصت السنة هذا العموم بقوله صلى الله عليه وسلم : يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب ، وقوله : لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا على ابنة اختها ، فانكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم .

ومن الثالث وهو تقييد مطلق القرآن أن الآية الكريمة الخاصة بحد السرقة جاءت مطلقة دون تحديد لموضع القطع من اليد « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » فقيدت السنة هذا الاطلاق بأن يكون القطع من الرسغ .

وأما قوله تعالى : « وليطوفوا بالبيت العتيق » فإنه يوجب الطواف مطلقاً ، ولكن السنة الفعلية قيدته بالطهارة [2] .

ثالثاً : سنة جاءت بأحكام سكت عنها القرآن الكريم ، بمعنى أنها قررت بعض الأحكام التى لم يذكرها القرآن بايجاب أو حرمة ، وذلك مثل منع الحائض والنفساء من الصوم والصلاة ، ومثل ما روى فى الميراث من أن الجدة جاءت إلى أبى بكر فسألته ميراثها فقال : مالك فى كتاب الله شيء ، وما علمت لك فى سنة رسول الله شيئاً ، فارجعي حتى اسأل الناس ، فسأل ، فقال المغيرة بن شعبة : حضرت رسول الله أعطاها السدس ، فقال أبو بكر : هل معك غيرك ، فقام محمد بن مسلمة الأنصاري فقال مثل ما قال المغيرة ، فانفذ لها أبو بكر السدس .

وهذا القسم من السنة لا يقرر الأحكام استقلالا ، فهو يستهدى روح القرآن ومقاصده

---

١ ـ من هدى السنة ، لأستاذنا الاستاذ علي حسب الله ، والدكتور مصطفي زيد ص ٤ .

٢ ـ من هدى السنة ص ٥ .

الكلية وقواعده العامة فلا تأتى السنة بحكم إلا وله فى القرآن أصل يرجع إليه ، فهى خادمة له ببيان مقاصده والإعانة على تطبيق أصوله وقواعده [1] .

ولهذا يجب الالتزام بما تقرره من أحكام ، فقد قرن القرآن طاعة الله بطاعة الرسول فى آيات كثيرة مثل قوله تعالى : « وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » .

الحديث القدسى

الحديث القدسى هو كل حديث يضيف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا لله عز وجل ، كالذى روي عن أبى ذر الغفاري عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرما بينكم فلا تظالموا . وما روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : يقول الله : أنا الرحمن وهذه الرحم شققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته .

والحديث القدسى نسبة إلى القدس ، أى الطهارة والتنزيه وقد يسمى أيضاً الحديث الإلهى أو الرباني نسبة إلى الإله أو الرب ؛ لأنه صادر عن الله تبارك وتعالى من حيث أنه المتكلم به أولا والمنشىء له ، وأما كونه حديثاً فلأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحاكى له عن ربه عز وجل .

والأحاديث القدسية ليست كثيرة فهى تبلغ نيفا ومائة حديث ، وهى تخاطب العواطف [2] البشرية فتحثها على الفضيلة والخلق الكريم ، وتوجهها إلى امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه ، طمعاً فى رحمته وخوفاً من عذابه ، فهى إلى علم الأخلاق أقرب منها إلى علم الفقه والأصول .

وأما الفرق بين الحديث القدسى والقرآن - وكل منهما وحي - فقد ذكر العلماء فروقاً كثيرة بينهما أهمها ما يلى :

القرآن الكريم معجزة خالدة محفوظة من التغيير والتبديل نزل به جبريل بلفظه

---

١ - من هدى السنة ص ٦ .

٢ - أصول التشريع الإسلامى لاستاذنا لاستاذ على حسب الله ص ٧١ ط رابعة ، دار المعارف . ، وانظر أدب الحديث القدسى ، الدكتور أحمد الشرباصى .

ومعناه على الرسول فى اليقظة ، ثم هو متعبد بتلاوته ، ويحرم مسه على المحدث وروايته بالمعنى ولا تصح نسبته - عند القراءة إلا إلى الله تعالى .

أما الحديث القدسى فإن الرسول يلهم معناه فقط فى اليقظة أو فى المنام ، ثم يعبر عنه بعبارة من عنده ، فليس معجزا بلفظه ولا متعبدا بتلاوته ، وتصح نسبته عند روايته إلى الله أو إلى الرسول فيقال : قال الله تعالى فيما رواه عنه الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو يقال : قال : الرسول صلى الله عليه وسلم فيما روى عن ربه[1] .

*

١ - انظر السنة قبل التدوين .

الاجتهـــاد

روى معاذ بن جبل رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال له : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ، قال : أقضى بما فى كتاب الله ، قال : فإن لم يكن فى كتاب الله ، قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ؟ قال : اجتهد رأيي ولا آلو .

قال معاذ : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدرى ثم قال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله .

يؤخذ من هذا الحديث أن الاجتهاد هو المصدر الثالث للتشريع والتفكير بعد الكتاب والسنة .

ولما ولى عمر بن الخطاب شريحا قضاء الكوفة قال له : انظر ما يتبين لك فى كتاب الله فلا تسأل عنه أحداً ، وما لم يتبين لك فى كتاب الله فاتبع فيه سنة رسول الله ، وما لم يتبين لك فى السنة فاجتهد فيه رأيك واستشر أهل العلم والصلاح .

وفيما أوصى به عمر شريحا ارشاد إلى الاستعانة بأهل العلم والصلاح ، وعدم الاستبداد بالرأي عند تعرف الحكم فى مسألة لم يتبين حكمها فى الكتاب والسنة[1] .

ان الاجتهاد فى الإسلام فريضة واجبة ، وهو اجتهاد يشمل كل ميادين البحث العلمى ، وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجتهدوا فكل ميسر لما خلق له » .

والحديث هنا خاص بالاجتهاد الفقهي ، وإن كان الحديث ينسحب على غير ذلك من مجالات الدراسة من حيث أن دعوة الإسلام الى الاجتهاد عامة ، وإن ما يجب ان يتصف به المجتهد الفقيه يجب أن يتصف به غيره مع اختلاف فى بعض الشروط لاختلاف

---

١ ـــ أصول التشريع الاسلامي لاستاذنا الاستاذ على حسب الله ص ١٣ .

التخصصات والدراسات ، وأن الغاية من الاجتهاد كله تتمثل في تقـــدم الأمة علميا وحضاريا ؛ لتـكون بحق خير أمة أخرجت للناس .

على أن الاجتهاد الفقهي ليس أمراً هيناً ، فهو يحتاج إلى بذل جهد ومتابعة وصبر .

ولذلك يعرف بأنه استفراغ الفقيه الوسع لتحصيل ظن بحكم شرعي ، ومعنى استفراغ الوسع : بذل الطاقة كاملة بحيث يدرك المجتهد من نفسه العجز عن المزيد على ما بذله . .

فعلى الفقيه المجتهد أن يبذل طاقته العقلية في استنباط الأحكام من أدلتها الصحيحة ، وألا يصدر حكما أو يقول رأيا إلا إذا قام على دراسة مستوعبة دقيقة ، وخضع لأصول شرعية مقررة ، وقواعد أصولية مجمع عليها ، فالمجتهد لا يخترع رأيا من عنده ولـكنه يحاول استنباط الأحكام من الأدلة الشرعية .

ولأثر الاجتهاد في المجتمع الإسلامى ، ولأن قول المجتهد في أمر ما بأنه حلال أو حرام حكم على هذا الأمر بأن الله أحله أو حرمه اشترط العلماء في المجتهـــد شروطاً كثيرة أهمها . . . .

أولا : العلم باللغة العربية بحيث يبلغ في فهم الـكلام العربي مبلغ الناشئين في الجاهلية أو صدر الإسلام أو مبلغ الأئمة المجتهدين كالشافعى ومالك وأبى حنيفة وغيرهم .

والسبب في اشتراط هذا الشرط ان كلا من الـكتاب والسنة في أرقى درجات الفصاحة والبيان ولا يتسنى لإنسان أن يستنبط الأحكام من هذين المصدرين إلا إذا كان حجة في اللغة عليما بأسرارها ومراميها .

ثانياً العلم بالقرآن الكريم ؛ لأن القرآن هو عمود الشريعة أو حبل الله الممدود إلى يوم القيامة . والمقصود بالعلم بالقــــرآن أن يكون عالماً بدقائق آيت الأحكام عارفاً للخاص والعام فيها وبيان السنة لها ومعرفة آيات الأحكام لا يعنى إهمال سواها ، فالقرآن كل لا يتجزأ ومعرفة بعض آياته متوقف على معرفة بعضها الآخر ، ومن هنا ذهب بعض العلماء إلى وجوب أن يكون المجتهد حافظاً للقرآن كله ، ومطلعا على التفاسير المختلفة التى شرحت هذا الـكتاب العزيز ، وملما بأسباب نزول الآيات ومدركا للمقاصد والغايات من الأحكام التى قررها القرآن .

ثالثاً : العلم بالسنة : والعلم بالسنة يقتضي أن يكون المجتهد على اطلاع واف على السنة القولية والفعلية والتقريرية فى كل الموضوعات التى يتصدى لدراستها ، وليس بلازم أن يكون المجتهد حافظاً للسنة ، بل الشرط أن يعرفها ويعرف مواضعها وطرق الوصول إليها ، وان يكون عليما برجال الحديث .

رابعاً : الاطلاع الواسع على آراء الفقهاء السابقين ومعرفة مواضع الإجماع ومواضع الخلاف وطرق استنباطهم ومناهج اجتهادهم ، فهذا – فضلاً عن الجانب العلمي – يمنح المجتهد طاقة على الاجتهاد باختيار ما يراه أنسب لموضوعه وأقرب إلى وجه الصواب فى بحثه ودراسته .

خامساً : صحة النية ومراقبة الله : ان النية المخلصة تجعل القلب يستنير بنور الله فيتجه إلى الله الحق لا يبغى سواه ولا يقصد غيره ، ومن ثم لا يخشي فى الحق لومة لائم ، وهذا يحول بين المجتهد وممالاء الناس ، أو الجري وراء الشهوات الدنيا وزينتها الفانية وتصبح الأحكام الاجتهادية خالصة من شوائب الأغراض الذاتية ، خالصة لله وحده .

هذه أهم الشروط التى اشترطها العلماء فى المجتهد وهي شروط طبيعية لا تعسف فيها فكما لا يجوز لإنسان أن يمارس مهنة الطب أو الهندسة مثلا إلا بعد أن يجتاز مرحلة دراسية خاصة تثبت كفاءته وقدرته على الطب أو الهندسة كذلك لا يجوز لشخص يريد أن يجتهد فى الدين الا إذا حصل أدوات الاجتهاد وتحققت فيه شروطه التى أومأت الى أهمها آنفا [١] .

مجال الاجتهاد :

ان أحكام الشريعة الإسلامية نوعان ، وذلك واضح لمن درس القرآن والسنة دراسة علمية فإنه يجد أن تلك الأحكام تدور فى فلك نوعين منها فقط : –

أولاً : الأحكام القطعية ، وهى التى ثبتت بالدليل القاطع الذى لا يحتمل تأويلا ولا شكا ، وهى لهذا ثابته لا تتغير بتغير الزمان والمكان ، ومن ثم لا يتصور اجتهاد فيها ، وذلك مثل العقائد وما يتصل بها كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم

---

١ – انظر الاجتها في الفقه الاسلامي المؤلف ص ٢١ .

الآخر والجنة والنار وأن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأن القرآن آخر الكتب السماوية ، ومنها أيضا كل ما هو معلوم من الدين بالضرورة كفرض الصلوات الخمس وصوم رمضان وحرمه الربا والسرقة وشرب الخمر والزنا ، وغير ذلك من المحرمات ، فهذه لا مجال للاجتهاد فيها ولا للاختلاف حولها ؛ لأنها ثابتة لا تتغير بتغير الزمان أو المكان .

ثانيا : الاحكام الظنية ، وهي التى لم ترد على النحو الذى وردت به الاحكام القطعية من ثبوتها بالدليل القاطع الذى لا يحتمل تأويلا ولا شكا ومن ثباتها على مر العصور والازمان ، وهذا النوع هو مجال الاجتهاد فى الشريعة الغراء ، وذلك مثل مقدار ما يمسح من الرأس فى الوضوء ؛ لأن الآية الكريمة تنص على وجوب المسح ولانها لا تحدد مقداره « وامسحوا برؤوسكم » فقد اختلف الفقهاء فى مقدار ما يمسح ، لان دلالة الآية عليه غير قطعية[1] ، ومن هذه الاحكام كل ما يجد للناس من مشكلات وقضايا لم ينص عليها فى الكتاب أو السنة ، فيبحث المجتهد فيها مستهديا بروح التشريع وقواعده العامة ، وهذا النوع من الاحكام هو المجال الفسيح للاجتهاد .

وسائل الاجتهاد :

قد يكون الاجتهاد فرديا وقد يكون جماعيا ، والاجتهاد الفردي هو الذي يصدر من شخص واحد يفتى فى مسألة معروضة عليه بناء على ماترشد اليه الادلة الشرعية المفيدة التى يراها كافية فى اجتهاده .

اما الاجتهاد الجماعى فهو الذى يصدر عن جماعة درست الموضوع وناقشته وانتهت بعد ذلك الى رأي فيه فهذا الرأي يعد اجتهادا جماعيا او اجماعا .

والاجتهاد الجماعى اولى من الاجتهاد الفردي ؛ لان راي الجماعة اولى من رأي الفرد فالفرد قد يخطىء فيما يراه ، ولكن الجماعة غالبا لا تخطىء فيما تجمع عليه ؛ لان تفاوت الآراء يحول دون ذلك بوجه عام ، ولعل هذا ما يشير إليه الحديث الشريف (لا تجتمع أمتى على ضلالة) . على أن الاجتهاد الفردي والجماعي يلجأ الى وسائل مختلفة ، وهي كلها تدور فى نطاق القواعد الشرعية والمقاصد العامة للاحكام .

---

١ ــ انظر أحكام القرآن للجصاص حـ ٢ ص ١٢٤ ط تركيا .

من هذه الوسائل القياس ، وهو الحاق أمر غير منصوص عليه فى الحكم بأمر منصوص عليه لاتفاق العلة فى كل منهما ؛ بمعنى أن يكون هناك حكم فى أمر وتكون هناك علة مستنبطة لهذا الحكم فإذا تحققت فى أمر آخر انسحب ذلك الحكم عليه بطريق قياسى (القياس) وذلك مثل الخمر فقد حرمت بنص الآية القرآنية ولأن علة هذا الحكم هو الاسكار فإذا تحقق الاسكار في نبيذ التمر أو الشعير فإن الحكم الذى جاءت به النصوص فى الخمر يعدى إلى النبيذ أو الشعير بطريق القياس، وقد ورد فى خطاب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى : « اعرف الاشباه والامثال وقس الأمور عند ذلك » . وأما رعاية مصالح الخلق وتقرير ما يجلب لهم النفع والخير ويدفع عنهم الأذى والشر فهو مصدر من مصادر الاجتهاد ، بل يعد مصدرا أساسيا وهو مع القياس المصدر ان للأحكام لاجتهادية .

ولكن رعاية المصالح العامة تقدم على المصالح الخاصة بشرط أن تحقق مصالح العباد وألا تتعارض مع نص شرعى أو قاعدة شرعية . إن رعاية المصلحة يدور فى فلك المحافظة على مقصود الشرع ومن ثم لا تفسر المصلحة بالاهواء والرغبات ولكن بما يتمشى مع تعاليم الشريعة ولا يخرج على قاعدة من قواعدها[1] .

اختلافات المجتهدين :

مما لاجدال فيه أن رائد المجتهدين جميعا الحق والوصول اليه ، وانهم قد اجتهدوا لانفسهم ولغيرهم باخلاص لا نظير له ، وأنهم إذا كانوا قد اختلفوا فليس مبعث ذلك نزوة طارئة أو خصومة ذاتية ولكن هناك أسبابا أدت إلى هذا الاختلاف تؤكد مبلغ حرص هؤلاء العلماء على معرفة الحق وتدل كذلك على ما كان يتمتع به هؤلاء من عمق الفهم وأصالة البحث وإذا كنت قد اشرت آنفا الى ان الاحكام القطعية لا مجال للاجتهاد فيها ؛ لأنه لا يتصور ان يقع خلاف حولها ، فإن الخلاف وقع في بعض الاحكام الظنية وهذا الخلاف على وجه الاجمال يرجع الى اسباب كثيرة اهمها .

اولا : التفاوت فى القدرات النفسية والعقلية فالملاحظ ان الناس يختلفون اختلافا بينا في قدراتهم النفسية والعقلية ويندر أن يتفق اثنان في الذكاء ، ومادام الأمر كذلك

---

١ ـــ انظر أصول التشريع الاسلامي لاستاذنا الاستاذ على حسب الله .

فلا مناص من ان تتفاوت النظرات والأحكام وخصوصا فى المسائل التى تحتمل الرأى والخلاف .

ثانياً : نظراً لأن اللغة العربية غنية بمفرداتها وألفاظها ووجود كثرة من المشترك اللفظي فيها فإن تفسير بعض الفقهاء لبعض الالفاظ المشتركة قد يختلف عن البعض الآخر وتكون النتيجة الاختلاف في الآراء وذلك مثل كلمة (القرء) فهي تفسر لدى بعض الفقهاء بالحيض ، على حين تفسر عند البعض الآخر بالطهر ، وقد أدى هذا الأختلاف فى تفسير الكلمة إلى الاختلاف فى مقدار عدة المرأة هل هي ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار ، ويذهب بعض الفقهاء الى الأول ويذهب آخرون الى الثانى .

ثالثاً كان من أثر تفرق الصحابة فى الامصار الإسلامية — وأن الصحابة أنفسهم ليسوا على درجة سواء من حيث الإلمام بالسنة فبينهم تفاوت كبير فى هذا — كان من أثر هذا ان عرفت أحاديث في بلاد دون أخرى ، ومن ثم أخذ الفقهاء بأحاديث لم يأخذ بها سواهم اما أنها لم تصح لديهم أو لم تصل اليهم ، ونجم عن هذا اختلاف في الاحكام وتباين في الآراء .

وجملة القول ان اختلاف المجتهدين لا يعني اختلاف الحق في ذاته ، ولكن اختلاف الطرق الموصلة اليه ، وان هذه الاختلافات كانت بعيدة كل البعد عن النزوات والاهواء وأنها أخيراً تركت لنا ثروة من الآراء والنظريات يمكن أن نأخذ منها اليوم ما نستهدى به في علاج كثير من مشكلاتنا في ضوء شريعتنا الغراء [1]



١ — انظر الاجتهاد في الفقه الاسلامي للمؤلف ص ٥٤ .

المذاهب الفقهيّة

وإذا كان الاختلاف بين الفقهاء يرجع بوجه عام الى تلك الأسباب التى أشرت اليها، وإذا كانت اختلافات المجتهدين بعيدة كل البعد عن الهوى ، وأنها تشهد لهؤلاء بالحرص البالغ على معرفة الحقيقة والتمسك بها – إذا كان الأمر كذلك فإن المذاهب الفقهية التى عرفها المسلمون ، ومالت كل طائفة منهم الى امام من الأئمة المجتهدين يقلدون آراءه ويدافعون عنها ويؤلفون فيها – هذه المذاهب ليست تشريعات مقدسة ، ولا ينبغى أن تكون مبعث خلاف أو شقاق بين المؤمنين ، وإنما يجب أن تظل آية على حيوية الفكر الإسلامى ، ورحابة أفقه وروعة آثاره العلمية ، وأن التمذهب بآراء امام خاص لايعنى أن آراء سواه خطأ أو دون غيره دقة فهم والتزاما بما شرعه الحق تبارك وتعـــالى .

إن المسلمين فى القرن الاول والثانى لم يعرفوا المذهبية فى الفقه وان عرفوا اتجاهات أو مدارس فقهية ، وكان الناس اذا عرض لهم أمر يحتاج الى فتوى لجـــأوا الى من يصادفونه من المجتهدين كائنا من كان فيعملون بما يفتيهم ، فلما تقدم الزمن أو بعبارة أدق انتصف القرن الثالث الهجري تبلورت المذاهب وتحددت مناهج الأئمة ، وأصبح لهم أشياع وأتباع ينافحون عنهم وينعصبون لهم وانقسمت الأمة الى أحناف وشافعية ومالكية وحنابلة وظاهرية . . . الخ .

على أن أئمة المذاهب الفقهية المشهورة وغير المشهورة لم يكن يدور بخلد واحد منهم ان الامة ستتفرق الى طوائف كل طائفة تنحاز الى امام تتعصب له ، وتأخذ بقوله ، وإنما كان مطمح آمالهم دراسة الشريعة وفقه أحكامها ؛ لتبصير الناس بما كتبه الله عليهم، حتى لا يضلوا سواء السبيل فى اقوالهم وأفعالهم ، ولايعنيهم بعد ذلك إن اشاد الناس بهم ، او اخملوا ذكرهم والحديث عنهم .

وكان هؤلاء الأئمة مع هذا يحضون تلاميذهم على الاجتهاد ويشجعونهم على البحث الحر ، والدرس المستقل ، ويحذرونهم من التبعية والتقليد ، وينهونهم الى أن آراءهم

عرضة للخطأ والصواب ولايجوز الأخذ بها الا بعد التيقن من صحتها ، فهذا أبو حنيفة يقول : علمنا هذا رأي ، وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن منه فهو أولى بالصواب ؛ ويروى انه قال ايضا : لا يحل لاحـــد ان يأخذ بقولنا حتى يعلم من أين قلنا .

وقال الامام مالك : إنما أنا بشـــر أخطىء واصيب ، فأنظروا فى رأيي ، كلما وافق الكتاب والسنة فخذو ابه ، وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه .

وهذا الإمام الشافعي يقول لصاحبه الربيع : يا أبا اسحاق لا تقلدنى في كل ما أقول وانظر فى ذلك لنفسك فإنه دين ، وروي ان الإمام احمد بن حنبل كان يقول لتلاميذه : انظروا فى أمر دينكم فإن التقليد لغير المعصوم (يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم) مذموم ، وفيه عمي للبصيرة ، وقال أيضاً : لا تقلدنى ولا مالكا ولا الشافعي ولا الثوري ، وخذ من حيث أخذوا[١].

ولذلك كان هؤلاء الأئمة صورة مشرقة للتواضع العلمي والاجتهاد الذى يمقت التعصب ، ويحترم الرأي لذاته لا لقائلة ، فهم يعرفون الرجال بالحق ولايعرفون الحق بالرجال .

ولـكن ماحذر منه الأئمة وقع فيه التلاميذ ، فقد أخذ هؤلاء يذيعون بين الناس آراء الأئمة ، وهو أمر لا بأس به ، ولـكن البأس جاء من ناحية أن تلامذة كل إمام تعصبوا لآرائه ، وشرعوا يدورون فى فلكها ولا يكادون يخرجون فى اجتهادهم عليها ، وعامة الناس تبع لهؤلاء التلاميذ فكان ان مالت كل طائفة إلى إمام تعول على آرائه دون غيره ، وضاعف من حدة المذهبية هبوط المستوى العلمي فى الأمة لعوامل مختلفة ، فقد نجم عن هذا اضفاء صفة القداسة على آراء بعض الأئمة ، وتعصب اتباع كل امام له تعصبا كريها الى درجة أنه يروى أنه حدث في بعض العصـور اقتتال في المساجـد بين أتباع الأئمة وهو أمر يؤسف له غاية الاسف ، ويدل على تخلف علمى شنيع ، وتقليد مذموم بغيض .

ان الائمة المجتهدين يأخذون جميعا من مشكاة واحدة وما كان بينهم من خلاف

---

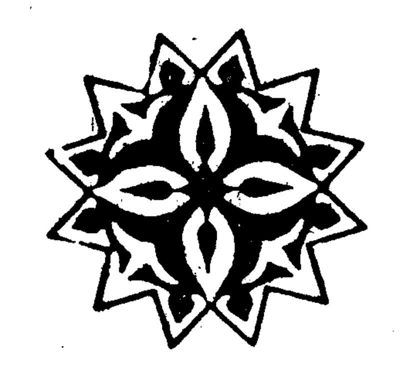
١ - أنظر الاجتهاد في الفقه الاسلامي للمؤلف ص ١١٢ .

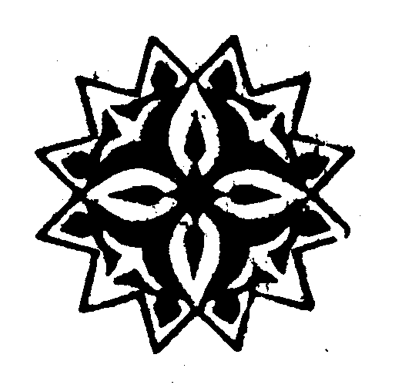
فرده الى ماذكرته سابقا بالإضافة الى أن هذا الخلاف مجاله الاحكام الفرعية ، فليس هناك خلاف بين الائمة جميعا في قضايا كلية أو أصلية ولهذا يكون من الخطأ البين أن أن نعد رأي امام معين هو الصواب وحده ؛ لان آراءهم اجتهادية ، وما كان كل منهم يؤمن بأن رأيه هو الصحيح دون رأي غيره ، ورحم الله من قال : رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب .

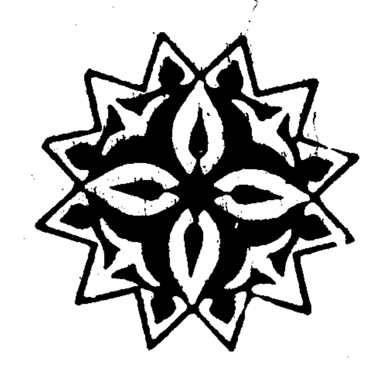
وطوعا لهذه النظرة الموضوعية للمذاهب الفقهية يكون من الخطأ الفاحش التعصب لآراء امام تعصبا يزدري أقوال سواه ، ولا يجعلها خليقة بالاتباع ، كما يعد من الخطأ الفاحش أيضا أن يعتقد أتباع امام او مذهب بأنهم امة وحدهم ، فليس بينهم وبين غيرهم من أتباع سائر المذاهب صلاة التزاوج والاختلاط والانفتاح ، والاولى بالمسلمين -- وبخاصة العلماء والمتعلمين منهم — ان تكون نظرتهم الى المذاهب الفقهية نظرة علمية موضوعية بعيدة عن التعصب والتقليد الاعمى ، وان يكون التراث الفقهي للأئمة جميعا ملكا للأمة كلها تنتفع به فيحاضرها ، ولاسيما فيمايتصل بقضايا المعاملاتالمالية ، تيسيراً على الناس وتحقيقا لرفع الحرج عنهم .

ان الإسلام دين الوحدة ، والخلاف في الرأي امر فطري ، ولكن يجب الايكون سبباً للتفرق ، والمذاهب الفقهية فى اصل نشأتها آراء اجتهادية فلا يصح ان تؤدي الى تحزب وتعصب ، وانما يجب أن تظل آية على حيوية الفكر الإسلامي وخصوبته وثرائه .

*



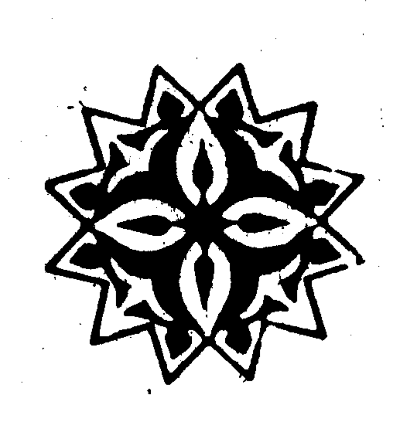




الباب الرابع

النظام الإجتماعى فى الإسلام

١- الأسرة
٢- التكافل
٣- الأقليات



تمهيد :

الإسلام نظام اجتماعي ، فهذا الدين جاء لبناء أمة ، وانشاء دولة ، ولا يكون هذا بغير المبادىء والتعاليم التى تنظم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان فى مختلف نواحي الحياة.

وقد جاء الإسلام بالتشريعات التى يؤسس عليها نظام اجتماعي توافرت له كل أسباب القوة والصلاحية الدائمة ، لأنه النظام الذى يتلاءم مع الفطرة الإنسانية ، ويحمى حرية الفرد وحقوق الجماعة على السواء ، ولكن عند التعارض بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة تقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة .

والحديث عن هذا النظام في استقصاء يعنى الحديث عن تعاليم الإسلام كلها حتى ما يسمي بالعبادات منها ، وهو أمر لا سبيل اليه هنا ، وقد آثرت الاجتزاء بالكلام عن الأسرة والتكافل والأقليات ، لأن الأسرة هي المجتمع الصغير الذى يتألف منه المجتمع الكبير أو الأمة ، ولأن التكافل بمفهومه الإسلامي الشامل هو الصورة المثلى للعلاقات الاجتماعية الكريمة ، ولأن الاقليات تمثل جزءا من المجتمع الإسلامي ، وإن لم تكن جزءا من الأمة الإسلامية .

ولعل في الحديث عن هذه الموضوعات توضيحا لبعض جوانب النظام الاجتماعي في الإسلام إن لم تكن أهمها ، وأطمع أن أعرض ابعض الجوانب الأخرى في الحديث عن النظام السياسي والنظام الاقتصادي في الجزء الثانى إن شاء الله .

الأســـــرة

تعد الأسرة قوام المجتمع وقاعدة الحياة البشرية ، فإذا كانت قوية الدعائم متينة البنيان كان المجتمع قويا متماسكا ، وإذا لم تكن كذلك كان المجتمع ضعيفاً متخلفا فما الأسرة إلا كاللبنة فى البناء بقوتها يقوى ويشتد وبضعفها يضعف وينهار .

وهذه الأهمية القصوى للأسرة بالنسبة للمجتمع تفسر لنا الاهتمام الكبير الذى أولته الشرائع الإلهية والتشريعات الوضعية للأسرة ؛ حفاظاً على تماسكها وقوتها ، لأن كل مشكلة تتعرض لها الأسرة ترتد على المجتمع كله تقض مضجعه وتهدد كيانه وتنذره بمختلف الأخطار والاضرار .

ولما كان الإسلام دين القوة والعزة والحياة الآمنة المستقرة اهتم بالأسرة كل الاهتمام، وقرر لها المبادىء والنظم التى تكفل للأسرة حياة طيبة لا تعرف غير الوئام والسلام ؛ لتظل دائماً لبنة قوية تشد أزر المجتمع وتدرأ عنه عوامل الضعف والتخلف والفساد .

ونظراً لأن موضوع الأسرة فى الإسلام ضخم ويحتاج إلى دراسة مستفيضة آثرت إلقاء بعض الأضواء على أهم القضايا التى يشتمل عليها نظام الأسرة وهذه القضايا هي : —

١ — نظرة الإسلام إلى الزواج .

٢ — الأصول التى يقوم عليها الزواج .

٣ — نظرة الإسلام إلى الصداق .

٤ — العلاقة بين الزوجين .

٥ — العلاقة بين الوالدين والأبناء .

٦ — تعدد الزوجات .

٧ — الطلاق .

٨ — الميراث .

نظرة الاسلام الى الزواج :

ولما كان الزواج أساس بناء الأسرة ولا يمكن أن تقوم أسرة بدون زواج شرعي عني الإسلام بالزواج عناية خاصة تفوق عنايته بأية علاقة إنسانية أخري ويبدو هذا فى كل ما عرض له هذا الدين القـــويم من مسائل الأسرة ابتداء بالخطبة وانتهاء بالطلاق عند الضرورة .

لقد رغب الإسلام فى الزواج وحث عليه فى الكتاب والسنة ، فما ورد من ذلك فى الكتاب الكريم قول الله تبارك وتعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون[1] ».

وقوله تعالى : « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون[2] » .

ومما ورد منه فى السنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة (أى القدرة على القيام بمسئوليات الحياة الزوجية) فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن الفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء[3] ».

وقوله عليه السلام : « إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف دينه فليتق الله في النصف الآخر[4] » .

وإذا كانت نصوص الكتاب والسنه لم تجعل الزواج أمراً مفروضاً كسائر الفروض[5] المشروعة مثل الصلاة والصيام والحج فإن الفقهاء قد تحدثوا عن صفة الزواج الشرعية وبينوا متى يكون مستحبا ومتى يكون واجباً وحراماً ومكروها ومباحاً .

---

١ – الآية : ٢١ فى سورة الروم .

٢ – الآية : ٧٢ فى سورة النحل .

٣ – سبل السلام جـ ٣ ص ١٤٢ .

٤ – انظر نيل الاوطار كتاب النكاح .

٥ – انظر القوانين الفقهية لابن جزي ص ١٦٨ .

فالزواج مستحب أو سنة مؤكدة إذا كان الإنسان قادراً عليه وعلى نفقاته المالية واثقاً من إقامة العدل فى معاملة زوجه ، وهذا هو الغالب فى أحوال الناس ويثاب الإنسان عليه فى هذه الحالة إذا نوى به تحصين النفس وتحصيل الولد .

ويكون الزواج واجباً إذا كان المرء قادراً على مطالبه المادية والمعنوية ولـ كنه يخشى على نفسه الفاحشة وارتـكاب ما حرم الله لو لم يتزوج .

ويكون الزواج حراما إذا كان المرء قادراً على مطالبه المادية غير أنه متحقق من ظلم زوجه والإساءة إليها إذا تزوج ، فإنه فى هذه الحالة يحرم عليه الزواج حتى لا يظلم غيره والله لا يحب الظالمين .

ويكون الزواج مكروها إذا كان المرء قادراً علي مطالبه المادية غير أنه يخشى أن يجور فى معاملة زوجته إن تزوج .

ويكون الزواج مباحاً فيما عدا ما سلف .

وحديث الفقهاء عن صفة الزواج الشرعية يوضح أن هذه الصفة تختلف باختلاف حال الرجال فى طبيعتهم البشرية وقدرتهم المالية ، وهم فى هذا الحديث قد قصروا هذه الصفة على الرجل دون المرأة ، لانها فى نظر الإسلام فى مركز المرغوب والمطلوب والرجـل مسئول عنها يرعاها وينفق عليها ، وهم بهذا أكدوا قوامة الرجال ، وكرامة المرأة وسمو منزلتها فى الإسلام .

والزواج بعد هذا رابطة مقدسة يجب أن تقوم على أساس من الرغبة المشتركة ليكون البيت مثابة عطف وحبه ورحمة ومودة ، ومن ثم يخضع الزواج فى الإسلام لاصول وقواعد تحقق للأسرة كل أسباب السعادة وتربية النسل تربية صالحة .

الاصول التي يقوم عليها الزواج :

وأول هذه الاصول أن الزواج يجب أن يقوم على الاختيار المطلق والرضا الكامل ، فلا تزوج امرأة بغير رضاها ولا تـكره على الحيـاة مع انسان تنفر منه ولا تميل اليه وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا تنـكح الثيب حتى تستأمر ولا تنكح البـكر حتى تستأذن واذنها السكوت[1] . كذلك روى أن بكرا جاءت

١ — صحيح مسلم ص ٣٦ ، ١٠ .

الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن أبى زوجنى ابن أخيه ليدفع بي خسيسته (ولم تذكر أنها كارهة لهذا الزواج) فجعل الرسول الأمر إليها ان شاءت اقرت الزواج وان شاءت أبطلته فقالت : قد اجزت ما فعل أبي ولـكنى اردت أن يعلم النساء أنه ليس للآباء من الأمر شيء [١] .

ويوضع الامام ابن القيسم المتوفي سنة ٧٥١ هـ حق المرأة في الموافقة والرضا بقوله : ان البكر البالغة العاقلة الرشيدة لا يتصرف أبوها في أقل شيء من ملـكها إلا برضاها ولا يجبرها على إخراج اليسير منه فـكيف يجوز له أن يتصرف فيها هى بدون رضاها، ومعلوم أن اخراج مالها بغير رضاها أسهل عليها من تزويجها بمن لا تريد .

وإذا كان الرضا أمراً لا بد منه فإن الرؤية أمر لا بد منها أيضاً، ليكون هذا الرضا جدياً وقائماً على حقيقة ومنبعثاً من شعور ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمغيرة ابن شعبة حين خطب امرأة : انظر اليها فانه احرى أن يؤدم بينـكما [٢] ، أى فإنه أدعي الى أن يبارك بينكما فتجتمعا على وفاق وخير وتتعاونا على ما فيه صلاح أمركما [٣] .

وتأكيداً لحرص الإسلام على أن تقوم الأسرة على أساس واضح من الرؤية والاقتناع والرغبة الصادقة كانت الخطبة مرحلة تمهيدية تسبق عقد الزواج بحيث إذا آنس كل من الرجل والمرأة في هذه المرحلة من نفسه الاطمئنان الى شريك حياته ورفيق عمره قام عقد الزواج على أساس متين ترجى معه العشرة الحسنة الدائمة .

ان عقد الزواج يجب ألا يقدم عليه انسان الا بعد الاطمئنان الصادق فالإسلام يريد لهذا العقد الدوام والتأبيد، ولا يبيح انفصامه الا عند الضرورة التى لا مفر منها ، ومن أجل هذا يذهب فقهاء المالـكية الى ان تـكون الخطبة سرية لا يصحبها ما يصحب عقد الزواج من الاعلان والولائم ، بمعنى ان تكون الخطبة مقصورة على اسرة العروسين حتى لا يترتب على العدول عن اتمـام الزواج ايذاء ادبي لأحد ، وحبذا لو عمل الناس بهذا ، وحبذا لو حاول الخاطب معرفة ما يدعوه الى نكاح المخطوبة قبل خطبتها والا اعرض عنها من غير ايذاء لها او لذويها فهذا، اقرب الى الادب الإسلامي والخلق الكريم.

---

١ ــ رواه النسائي واحمد .

٢ ــ سنن الترمذي جـ ٣ ص ٣٩٧ .

٣ ــ الزواج في الشريعة الإسلامية لاستاذنا الاستاذ علي حسب الله ص ٢٠ .

والاصل الثاني الذي يجب ان يقوم عليه الزواج في الاسلام هو الدين والخلق الطيب قبل أى شيء آخر من اعراض هذه الحياة الدنيا كالمال والحسب والجمال ، فعن ابى هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك[1]. وروي ان أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تزوجوا في الحجر الصالح فإن العرق دساس[2] » . كما روي أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أراد أن يلقي الله طاهراً فليتزوج الحرائر[3] »، أى كرائم الأصول .

وقد حذر الرسول عليه السلام من النساء اللاتى لا يتمتعن بالدين والخلق الكريم لانهن نشأن في بيئة فاسده : « اياكم وخضراء الدمن ، قالوا وما خضراء الدمن يا رسول الله قال : المرأة الحسناء فى المنبت السوء[4] » .

ويؤكد الرسول في بعض ما يروى عنه أن الاهتمام بأعراض الحياة الدنيا في الزواج مجلبة للشقاء والتعاسة، فقد قال عليه السلام : لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن ان تطغيهن ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة سوداء ذات دين أفضل[5] .

وكما جاءت الآثار الكثيرة تدعو إلى أن يكون اختيار الزوجة مناطه الاعتصام بحبل الله والتخلق بأخلاق القرآن الكريم وردت آثار كثيرة أيضاً تدعو إلى أن يقاس الرجل بهذا المقياس الصحيح فى الإسلام ، مقياس الإيمان والتقوى ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، الا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض[6] » . فهذا الحديث الشريف يوضح للمسلمين أن الرجل إذا كان ذا خلق ودين فهو زوج صالح ، فإذا لم يزوج لاعتبارات أخرى لا يقيم لها الإسلام وزنا كبيراً كالمال والجاه فإن هذا فتنة وضلال وانحراف عن طريق الحق وسواء الصراط .

---

١ ــ سهل السلام جـ ٣ ص ١٤٥ .
٢ ــ احياء علوم الدين جـ ٢ ص ٢٨ .
٣ ــ الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٥ .
٤ ــ النهاية في غريب الحديث .
٥ ــ رواه ابن ماجه والبيهقي وانظر التاج الجامع للأصول جـ ٢ ص ٢٨٣ .
٦ ــ سنن الترمذي جـ ٣ ص ٣٩٤ .

ان الإسلام يريد من المؤمنين به أن تـكون لهم قيم سامية يحرصون عليها ويدعون إليها ، وهذه القيم مردها كلها إلى تعـاليم القرآن الكريم وسنة الرسول العظيم ، ولهذا يحض المؤمنين على أن يكون الدين والخلق قوام الحياة الزوجية ، وهذا لا يعنى أن المال والجمال وما إليها ينبذها الاسلام ، وإنما يعنىأن يكون الدينوالخلق هما الشرط الأسامي لقيام علاقة مقدسة ، وإذا انضم إلى الدين والخلق المال والجمـال فقد جمعت المرأة كل الصفات التي تدعو إلى الاقتران بها ، المهم اسلاميا أن يتمتع الرجل والمرأة بالدينوالخلق وأن يكون حرص المسلم عليهما قبلحرصهعلى أى شيء آخر من متاع هذه الحياة الدنيا.

والذى لا جدال فيه أن هذا الأصل يضفي على الأسرة جوا من الروحية ويحررها من إسار المادية والشهـــوات الهابطة تلك التي تحيل هذا المجتمع الصغير إلى بيئة تفتقد المشاعر الخالصة من الإيمان والمحبة ، وفي هذه الحالة يتعرض هذا المجتمع إلى الشقاق والصراع والتمزق والانهيار .

والاصل الثالث الذي يقوم عليه الزواج في الاسلام هو وحدة الزوجة ، بمعنى أن المسلم يجب عليه أن يؤمن أن تعدد الزوجات ليس أصلا في بناء الأسرة، لكنه ضرورة يلجأ إليها عند معالجة مشكلة من المشكلات لا سبيل إلى علاجها الا عن طريق التعدد، ومن هنا تـكون وحدة الزوجة هو الأصل الثابت في قيـام الأسرة ، فالتعدد غالباً مظنة الخلاف والاضطراب في حياة هذا المجتمع الصغير ، ولكن عند الضرورة يتحمل أخف الضررين ويصبح التعدد مطلوبا ومرغوبا ، وعند الحديث عن تعدد الزوجات تفصيل للظروف التي تدعو الى التعدد والضوابط التي وضعها الإسلام لـكي يحقق هدفه في إسلام المجتمع واستقرار أوضاعه .

أما الأصل الرابع فهو قيـام عقد الزواج على التأبيد والدوام ، فالإسلام يريد لهذا العقد البقاء والاستمرار ويرفض فيهالتأقيت، ولا يبيح انقضاءه الا عند الضرورةالقصوى حين لا تنجح كل محاولات الاصلاح بينالزوجين ، ويصبح جو الأسرة مشحونا بالخلافات والاضطراب ، وفي الحديث عن قضية الطلاق اشارة الى الغـــرض من اباحة الطلاق ومراحله ، يؤكد حرص الاسلام الشديد على عقد الزوجية ، وجواز انتهائه عندما يمسى استمراره غير محقق لرسالته .

والأصل الخامس والأخير هو وجوب اعلان الزواج والاشهاد عليه ، وأهمية هذا

لاشهاد والاعلان تبدو في أن الزواج يجب ألا يتم في السر والخفاء كما تتم الجريمة ، إنه بمثابة مجتمع صغير يربطه ميثاق غليظ فوجب أن يستقبل باحتفاء واشهاد يعلن طهارة العلاقة الزوجية وينفي عنهم كل ريب واتهام ، فضلا عما في هذا من ابتهاج وحبور في هذه المناسبة ، وهو ابتهاج يحرص الإسلام على أن يظلل حياة الأسرة دائما .

الصـــداق :

وأما الصداق فإن له في الإسلام تقديراً خاصاً فهو ليس ثمناً لشيء ، ليس ثمناً لتربية المرأة أو غير ذلك مما يظن بعض الناس وأشارت إليه بعض الكتب ، ولكنه رمز لتقدير الرجل المرأة ورغبته فيها وحبه لها ، ومن ثم كان الصداق ملكاً خالصاً للزوجة لا يحق لأبيها أو وليها أن يستولي عليه أو يحوز بعضه لنفسه ، وللزوجة الحق في أن تتنازل عن جزء منه لزوجها . قال تعالى : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة[1] » ، أي هبة وهدية .

وهذا لم يكن الصداق في الإسلام في صورة مال دائماً ، فقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم صداق امرأة ان يعلمها زوجها بضع آيات من القرآن الكريم[2] . وهذا يعني أن الصداق كما يكون مالاً يجوز أن يكون تعليماً وارشاداً ، أو غير ذلك مما يعد خيرا المرأة وآية على رغبة الرجل وتقديره لها .

على أن الإسلام في تشريعه لنظام الأسرة لم يحدد للناس صداقاً مالياً لا يصح تجاوزه ، فليس هناك حد لأقل الصداق أو أكثره ، غير أن من قواعد ديننا الحنيف قيامه على اليسر ورفع الحرج والضيق والمشقة ، ليعيش الناس في دنياهم حيــاة طيبة بعيدة عن الاضطراب والقلق ، والأخذ بهذه القاعدة يقتضي الناس عدم المغالاة في المهور والاسراف فيها ، لأن ذلك يتعارض مع يسر الإسلام وسماحته وقد رويت عن رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام أحاديث مختلفة تدعو الى القصد والاعتدال وتبين أن الزواج المبارك هو الزواج الذي يخلو من الاسراف في المهور يقول عليه الصلاة والسلام : « ان أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة » . ويقــول أيضاً « ان من يمن المرأة تيسير خطبتها وتيسير صداقها » .

---

١ — الآية ٤ في سورة النساء .

٢ — انظر صحيح مسلم ص ١٠٤ .

٣ — نيل الاوطار ، كتاب الصداق .

ولا جدال في أن المغالاة في المهور تؤدى إلى صرف الراغبين فى الزواج عنه، وفى ذلك ما فيه من الأخطار التى تهدد المجتمع بالفساد والانقراض، فإذا أضاف الناس إلى المغالاة في المهور الاسراف في نفقات الزواج تضاعفت المشكلة وأنذرت الأمة بالشر والضرر.

إن الاسلام دين الرحمة واليسر وحين ينحرف الناس عن تعاليمه يخضعون في سلوكهم لتقاليد وعادات لا يقرها شرع الله الهادى إلى سواء السبيل فإنهم يجلبون على أنفسهم المتاعب من حيث لا يحتسبون، وما احرانا أن نلتزم بتعاليم ديننا في كل شئون حياتنا، فذلك وحده سبيل السعادة في الدنيا والآخرة.

العلاقة بين الزوجين :

والعلاقة الزوجية في الإسلام علاقة مقدسة قوامها السكن والرحمة والمودة والاحسان وصدق الله العظيم « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن[1] ». « ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمه ». فالعلاقة اذن علاقة امتزاج، ولن تكون كذلك إلا إذا قامت على المودة والمحبة والاحسان والتجاوز عن الهفوات واللمم، ليسود جو الاسرة دائماً الوئام والحبور والسرور.

وما دام لنا في رسولنا أسوة حسنة فإنه عليه الصلاة والسلام كان خيرا لأهله، كان يحنو على زوجاته ويساعدهن في أعمال المنزل، وما روي من أنه كان يسابق السيدة عائشة في الصحراء أوضح دليل على حدبه وانسانيته فيمعاشرة زوجاته، وحين اتفقت كلمتهن عليه وطلبن منه المال والمتاع دفع هذا الموقف بالحكمة والحسنى، لقد هجر زوجاته شهراً كاملا دون أن يغلظ لهن في القول، وهكذا كان رسولنا الكريم زوجا بارا بأهله، وكنا مأمورين باتباع هديه في معاملة نسائه.

والمرأة كالرجل في وجوب التخلق بالأخلاق الحميدة وأن تحسن الى زوجها وتكون له كما نص القرآن الكريم سكنا يرعاه ويحميه، وقد جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه جعل المرأة راعية فى بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها، ومن مسئوليتها أن

---

١ — الآية ١٨٧ في سورة البقرة.

تحافظ على هذا البيت فلا تفشى لزوجها سراً ولا تعصى له أمراً ما دام هـذا الأمر في حدود ما شرع الله ، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

ان الإسلام يريد للعلاقة الزوجية الاستمرار ويريد للبيت أن يكون دائماً مثابة للحنان والأمن والسلام ، ولذا وجب أن تظل العـلاقة بين الزوجين أساسها المحبة والمودة والعشرة الحسنة .

والحديث عن العلاقة بين الزوجين يقتضى الإشارة الى القوامة وبيان مفهومها السليم في الأسرة . ان الأسرة مجتمع صغير لابد له من راع مسئول يقوم عليه ويحميه، والرجل بما منحه الله من خصائص عديدة أصبح أهلا ليـكون مسئولا عن الأسرة ينفق عليها ويأخذ بيد أفرادها الى طريق الحق والخير ، وليـكون قواماً على المرأة يرعاها ويحنو عليها ، وهذا لا يعنى إلغاء شخصيتها في البيت أو المجتمع ، أو يسلبها حقوقها المدنية ، فالقوامة وظيفة داخل كيان الأسرة لإدارة هـذا المجتمع الصغير وحياطته وحمايته لا لإلغاء شخصية المرأة أو للتحكم فيها والسيطرة عليها . « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم[1] » ، فهي المسئولية لتوافر دواعيها من الـكفاءة والبذل والانفاق .

العلاقة بين الوالدين والابناء :

وأما العلاقة بين الأبناء والوالدين فيلاحظ أن القرآن الكريم وصى الأبناء بالوالدين دون أن يوصى هؤلاء بأولئك ، وذلك لأن الفطرة التى فطر الله الخلائق عليها أن الآباء يحنون على أبنائهم ويبذلون قصارى ما يستطيعـون من أجل حماية الأبناء وسلامتهم ونموهم و كفالة المستقبل المشرق لهم ، ولكن الابناء قد ينسون فضل الآباء وبخاصة عند امتداد العمر بهؤلاء، وحين يصبحون في حاجة الى الرعاية والحماية، وصدق الله العظيم : « وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا إما يبلغن عندك الـكبر احدهما أو كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا[2] » فواجب الابناء نحو الوالدين — كما تحدثت

---

١ — الآية ٣٤ فى سورة النساء .

٢ — الآية ٢٤ فى سورة الاسراء .

الآية الـكريمة — يتمثل في الإحسان لـكليهما وبخاصة عند الـكبر ، وكلمة الإحسان فى مدلولها العام تشمل كل ألوان الرعـاية والبر والرحمة والحنان فى أجمل الصور وأرق المشاعر .

ان الإحسان الى الوالدين واجب مقدس ، وليس أدل على قداسته من أن الامر به جاء بعد الامر بعبادة الله وحده ، وفى هذا اشارة الى أن هناك تلازما وثيقاً بين الإحسان الى الوالدين ، وافراد الله وحده بالعبادة ، فلا تنفع العبادة مع العقوق ، ولا يجدى الإحسان مع الشرك ، والى هذا تشير الآية الكريمة « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احسانا[1] » وأيضاً يشير الحديث الشريف الذى رواه عمر بن مرة الجهني أن رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله شهدت أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، وأديت زكاة مالى ، وصمت رمضان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا — ونصب أصبعيه — ما لم يعق والديه[2] » .

وإذا كان الإحسان إلى الوالدين واجبا ، وان كانا فى غنى عن ذلك ؛ لوفرة المال وقوة البدن وسلامـة العقل ، فإنه يصبح آكد في الوجوب حين يمتد العمر بالوالدين ، فكبر السن يضعف الإنسان جسما وفـكراً ، ومن ثم يصبح عاجزاً عن الـكسب ، وفى هذه الحالة يكون أشد حاجة الى الرعاية والعطف ، ولذلك نصت تلك الآيات على حق الوالدين عند الـكبر بعد أن أمرت بالإحسان مطلقا دون قيد من القيود .

روى عن الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، قال : لو علم الله تعالى شيئاً فى العقوق أدنى من كلمة « اف » لحرمه ، فليعمل العاق ما شاء ان يعمل فلن يدخل الجنة ، وليعمل البار ما شاء ان يعمل فلن يدخل النار[3] » .

ان حق الوالدين يفرض على الابناء الطاعة فيما لا معصية فيه دون معارضة او مناقشة ، والبذل والانفاق دون تقتير او من ، والعطف والرعاية دون ضجر او سأم ، فمن قام

---

١ — الآية ١٥١ في سورة الانعام .

٢ — بر الوالدين للأستاذ عبد الرءوف الحناوى ص ١٢ .

٣ — المرجع السابق ص ٢٤ .

بهذا الحق خير قيام فاز برضوان الله ودخول جنته ، ومن قصر في هذا الحق ، واساء ادلى اساءة فهو عاق ، والعقوق حجود وكفران وعصيان ومآ له نار جهنم ، وقد روى عن أبي امامة رضى الله عنه ان رجلا قال : يا رسول الله ما حق الوالدين على ولدهما ، قال : هما جنتك ونارك [1] » .

فهذا الحيث يبين فى إيجاز بليغ أن من عامل والديه بالإحسان نال سعادة الآخرة فكانت الجنة مثواه ، وأن من أساء معاملتهما كان جزاء إساءته سخط الله وعذاب النار .

هذا فى اجمال عام حق الآباء على الأبناء ، فأما حق هؤلاء على الآباء ، فكما ذكرت يلاحظ أن الكتاب العزيز لم يوصى الوالدين بالأبناء ، ومع هذا وردت بعض الآيات والأحاديث والآثار التى تدعو الآباء إلى رعاية الأبناء وتنشئتهم تنشئة طيبة ، فقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون [2] » .

فالآية تحذر من نار وقودها الناس والحجارة ، وتدعو إلى العمل الصالح الذى يقى المرء وأهله هذه النار ، والأبناء بعض أهل الإنسان وعليه ان يوجههم الى الطريق السوي لينجو من العذاب فكل امرىء مكلف بتربية أبنائه ، وهم أمانة لديه ومسئول عنها ، وفى ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث له : « والرجل راع فى اهله وهو مسئول عن عنهم » [3] ، ويقول أيضاً : « إن الله سائل كل راع عما استرعاه ، حفظ أم ضيع » .

وتربية الأبناء [illegible] سليمة قوامها الدين والخلق والجد تكفل لهم حياة كريمة وتجعل منهم قوة خير لأنفسهم ولأمتهم ، وهذا يقتضى من الآباء أن يجمعوا فى تربيتهم لفلذات أكبادهم بين الرحمة والحزم ، فالتدليل والاستجابة المطلقة لرغبات الابناء

---

١ ــ المصدر السابق .

٢ ــ الآية ٦ في سورة التحريم .

٣ ــ صحيح مسلم ص ١٤٥٩ ت محمد فؤاد عبد الباقي .

لا يثمر غير الفساد وكذلك الغلظة والقسوة الدائمة لا تثمر غير اضطراب الشخصية وانحرافها ، والشاعر العربي يقول :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما

فليقس أحيـــانا على من يرحم

روي أن الأقرع بن حابس رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل سبطه الحسين رضي الله عنه فقال : « إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم ، فقال صلى الله عليه سلم : من لا يرحم لا يرحم »[1]. فالرحمة التى يجب أن يسبغها الآباء على الأبناء أمر فطري ولا يبخل بها إلا من تحجر قلبه وانتكست فطرته فلا يكون أهلا لرحمة الله .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رحم الله والدا أعان ولده على بره[2] » أي لم يحمله على العقوق بسوء تربيته وقسوة معاملته ، وهذا يعنى ان عليه ان يكون عونا له على اتباع طريق الخير ، فيهذب خلقه ويتعهده بالنصح والإرشاد ، ويحول بينه وبين أسباب الانحراف والفساد .

وينشأ ناشىء الفتيان منا على ما كان عـــوده أبوه

وقد جاء عن بعض علماء المسلمين في الصدر الأول أنه قال لأبنائه « لقد أحسنت إليكم صغارا وكبارا وقبل أن تولدوا ، فقالوا : كيف أحسنت إلينا قبل أن نولد ؟ فقال : اخترت لـكم من الأمهات من لا تسبون بها »[3] .

وهذا العالم إذا كان يمن على اولاده باختياره أمهم عفيفة كريمة الخلق فإنه يشير إلى حق الابناء على الآباء ، وهو الإحسان إليهم وتربيتهم تربية قويمة لحمتها وسداها مبادىء الإسلام الحنيف .

ومن وسائل تربية الأبناء وبخاصة في مرحلة الشباب وجوب قيام العلاقة بين الآباء والأبناء على أساس من المصارحة والانفتاح ؛ ليجد الأبناء من آبائهم التوجيه الذى

---

١ ــ صحح البخاري باب الأدب .

٢ ــ رواه ابن ماجه في باب الادب .

٣ ــ الزواج في الشريعة الإسلامية ص ٢٠ .

يعصمهم من الخطأ أو الزلل، وليس من الإسلام فى شىء أن يقيم الآباء بينهم وبين أبنائهم سياجا من الرهبة والانغلاق ، فهذا ليس من الرحمة التي أمر الآباء باسباغها على أبنائهم .

وجملة القول ان العلاقة بين الآباء والأبناء تقوم على الطاعة والاحترام والاحسان من الأبناء الآباء ، وعلى الرعاية والنصح والتوجيه من قبل الآباء ، وعند امتداد العمر بهؤلاء فإن على الأبناء ان يضاعفوا من احسانهم لآبائهم ، وبذلك يظل جو الأسرة أبدا مشرقا بنور المودة والرحمة والحنان والإحسان .

تعدد الزوجات :

لقد اشرت فيما سلف إلى أن من أصول الزواج فى الإسلام وحدة الزوجة ، وأن التعدد ضرورة تقدر بقدرها ، وان الإسلام في تشريعه للزواج يضع مبادىء يصلح تطبيقها فى كل زمان ومكان، وبالنسبة لقضية تعدد الزوجات راعى الإسلام كل الظروف والاحتمالات فقرر لها التعاليم التي تعالج المشكلات التي يتعرض لها المجتمع ، لقد أباح الإسلام التعدد؛ علاجا لمشكلة ، وهذه المشكلة قد تختلف من عصر إلى عصر ومن شخص إلى شخص ولـكنها تظل مشكلة تحتاج إلى علاج ودواء .

فمثلا الشخص الذى لا تنجب زوجتـه بسبب عقمها وهو يتطلع إلى أولاد تقر بهم عينه فهل يطلق زوجته،لأنها لم تنجب حتى يتزوج امرأة أخرى،أويبقى على تلك الزوجة ويتزوج أخري ؟ إن من الانصاف والعـــدل الا تطلق الزوجة بسبب عقمها ومن الانصاف أيضاً أن لا يحرم الرجل من أبناء ، وفى هـذه الحالة يبيح الاسلام للرجل أن يتزوج ويبقى على الزوجة الأولى يرعاها ويحسن إليها .

ثم كيف يتصرف الرجـل إذا مرضت زوجتـه مرضا يطول علاجه وهل يتزوج امرأة أخرى؛ ليعف نفسه ويحول بينها وبين الفحشاء ،أو لا يتزوج ويرتكب المحرمات.

إن الإسلام يحرم الزنا ويعاقب عليه اقسى العقوبات ، ومن ثم يكون التعدد فى هذه الحالة هو الطريق الوحيد النظيف ؛ دفعا للشر وحماية للمجتمع من الفساد .

---

١ ـــ انظر الزواج في الشريعة الاسلامية ص ١٤٤ .

ثم كيف يكون الحال إذا زاد عدد النساء عن عدد الرجال كما يحدث في اعقاب الحروب ؟ ان اباحة التعددفى هذه الحالة هو العلاج السليم الصحيح؛ لأنه يحمى المرأة من التردى فى مهاوى الفاقة والاتجار بالاعراض ، وقد حدث في أوربا بعد الحرب العالمية الثانية ان طالبت النساء بتعدد الزوجات ، وذلك لكثرتهن وقلة عدد الرجال وبخاصة فى المانيا ، لقد بلغت نسبة الرجال إلى النساء ١ : ٣ ، والمعروف ان اوربا تمنع تعدد الزوجات، تقديرا للمرأة كما يزعم الزاعمون ، لأن هناك تعددا لا يعرف الطهارة والعفة ، وهو اتخاذ الخليلات والإسلام يحارب هذا الفساد ويدعو الي مجتمع تظلله رايات العفة والحياة الكريمة النظيفة .

واباحة التعدد في الإسلام مشروطة بشرطين : القدرة على الانفاق ، والعدل بين الزوجات فى الانفاق والرعاية ، أما العدل فى العاطفة القلبيةفغير مستطاع وكل مايطلب من الرجل الا يظهر ميله الى زوجة دون أخرى فتكون كالمعلقة وصدق الله العظيم « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميــــل فتذروها كالمعلقة [١] » .

ان تعدد الزوجاتفي الإسلام ضرورة؛ علاجا لمشكلة ،غير ان جهل طائفة من المسلمين بحكمة التعدد جعلهم يعددون دون حاجة الى ذلك فجلبوا على اسرهم الخلاف والشقاق، واصبح التعدد طوعا لهذا مشكلة بدلا منان يكون علاجا لمشكلة كما شرعه الله ، ولكن جهل البعض وسوء تصرفهم لا يقدح فى اصل التشريع ، وسيظل تعدد الزوجات علاجا لمشكلات المجتمع وان ظن المغرضون غير ذلك .

الطــلاق :

وإذا كان الإسلام يبنى عقد الزواج على الرضا والرغبة المشتركة كما يبنيه على الاستمرار والدوام فانه يبيح انفصام هذا العقد حين يضطرب جو الأسرة وتسوء العلاقة بين الزوجين اساءة بالغة ، وذلك لأن الانفصال فى هذه الحالة خير من بقاء العقد واستمراره .

والإسلام يعد الطلاق أبغض الحلال ، ولا يسرع إليه لأول بادرة من خلاف بين

---

١ - الآية ١٢٩ في سورة النساء .

الزوجين إنه يحاول علاج كل ما يهدد الأسرة ويقضي على أمنها واستقرارها ، فالقرآن الكريم يشكك الرجال في شعورهم بكراهية أزواجهم أحيانا « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا »[1] . وقال صلي الله عليه وسلم : « لا يفرك (أي لا يكره) مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضي منها آخر[2] » .

فإذا وقع الخلاف بين الزوجين فان الاسلام يحثهما على الاستقلال باصلاح ذات بينهما ان استطاعا ، « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير[3] » فان عجزا بعث ولي الأمر من أهلهما من يصلح بينهما « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما[4] » .

فان لم يجد كل ذلك فى اصلاح ذات بينهما فقد تبين أنه لامصلحة للأسرة ولا للأمة في هذا الارتباط ، ولهذا شرع الله الطلاق في أضيق الحدود ، دفعا للمضار التى تنشأ من اجتماع الزوجين على بغض و كراهية[5] .

وقدر الاسلام مايقع فيه الزوج من خطأ وسوء تقدير يورثان حسرة وندما فجعل الطلاق على مرحلتين ، وللزوج في كل منهما أن يعيد امرأته إليه دون مهر وعقد جديدين مادامت في مدة العدة « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان[6] » .

وإذا طلقت المرأة في المرة الثالثة فلا تحل لزوجها إلا بعد أن تنكح زوجا آخر زواجا طبيعيا ثم تطلق طلاقا طبيعيا كذلك .

إن الطلاق في الاسلام مباح عند الضرورة وما ذلك إلا ليظل عقد الزوجية ـ وقد سماه القرآن الكريم ميثاقا غليظا ـ صورة للوئام والمحبة والحياة الآمنة المطمئنة ، لتكون الأسرة دائما مصدر الحنان والعطف والتربية السليمة للأبناء .

---

١ ــ الآية ١٩ في سورة النساء .
٢ ــ الزواج في الشريعة الاسلامية ص ٩ .
٣ ــ الآية ١٢٨ في سورة النساء .
٤ ــ الآية ٣٥ في سورة النساء .
٥ انظر الفرقة بين الزوجين لاستاذنا الاستاذ على حسب الله .
٦ ــ الآية ٢٢٩ من سورة البقرة .

الميراث :

أما قضية الميراث فإن الاسلام لم يفصل في تحديد ماشرعه من أحكام مثل مافصل فى أحكام المواريث ، وهذا يعنى أنه لا مجال للاجتهاد فى هذه الأحكام ، وأن على الناس أن يحافظوا عليها ولايحيدوا عنها ، فهي حدود حددها الله فمن تعداها وخرج عليها فله نار جهنم خالدا فيها وله عذاب مهين .

وإذا كان الأمر كذلك فإن تفضيل بعض الأبناء على بعض فى الميراث أو حرمان البنات دون الذكور أو اعطائهن حقهن ناقصا ـ كل هذا ضلال وظلم وحرام ، فالله قد قسم ولايجوز لعبد أن يتدخل فيما فرض الله والا كان من الهالكين .

وأود أن أشير إلى أن إعطاء الرجل ضعف الأنثى ليس محاباة للرجل ولكن الاسلام وهو دين العدالة والمساواة قد أعطى المرأة نصف ما أعطى للرجل وأعفاها من كل مسئولية مادية فهي غير مسئولة عن نفسها أو غيرها ولكن الرجل مسئول عن المرأة أما أو بنتا أو أختا أو زوجة وغير ذلك ـ ومن هنا يتضح أن الاسلام لم يظلم المرأة وأنه أعطاها حقها دون اجحاف أو محاباة للرجل .

وبعد فتلك أضواء على بعض جوانب الأسرة فى الإسلام ، ومنها يتضح مايلى :

أولا : تقوم الأسرة المسلمة على دعائم راسخة من القيم والمبادىء الدينية والخلقية ، وان أعراض الحياة الزائلة من مال وجاه وجمال ليست في نظر الإسلام من قواعد هذا المجتمع الصغير ، وان العلاقة في داخل هذا المجتمع سواءا كانت بين الزوجين أم بين الوالدين والأبناء علاقة رحم موصولة ، ومودة إنسانية كريمة .

ثانيا : إن المرأة فى الإسلام شقيقة الرجل ، وان المساواة بينهما فى الإنسانية كاملة ، وان لها شخصيتها المستقلة وحريتها الكاملة فى اختيار زوجها والتصرف فى مالها ، وان مفهوم القوامة لايعنى الاستعلاء أو السيطرة ، ولكنه يعني المسئولية ، لتوافر أسبابها لدى الرجل ، وهذا لايغض من كرامة المرأة أو يسيء إليها .

ثالثا : يحرص الإسلام كل الحرص على أن تكون الأسرة مثابة للأمن والحب

والوئام والسلام، وأنه يريد لها الدوام والبقاء ،غير أنه يبيح انفصام عقد الزوجية حين يفقد هيبته وجلاله ، وتمسى العلاقة الزوجية علاقة شقاق وإعراض ونشوز يستعصى علاجه ، ومع هذا يخضع الطلاق لأصول تتيح الفرصة للروية والتفكير ومحاولة الاصلاح ورأب الصدع مما يؤكد حرص الإسلام على استمرار الأسرة ، وأن الطلاق أبغض الحلال إلى الله .

رابعا : يبيح الإسلام تعدد الزوجات ، ولكن ليس كل ماهو مباح مطلوب ومرغوب أو يجب على الإنسان أن يفعله، فهذه الإباحة شرعت، علاجا لمشكلة اجتماعية لا سبيل إلى علاجها بغير التعدد ، فمن أقدم عليه دون حاجة مشروعة فهو آثم ومسيء.

خامسا : تقوم فلسفة الميراث فى الإسلام على قاعدة (الغنم بالعزم) فهي العدالة والمساواة في الحقوق والالتزامات ، وذلك لأن إعطاء الرجل ضعف المرأة ليس محاباة له ولا هضما لها ، ولكنها العدالة التي فرضت على الرجل كل الانفاق وأعفت المرأة من جميع المسئوليات المالية نحو نفسها وغيرها .

بعد هذا لاصحة لدعاوى خصوم الاسلام حول حقوق المرأة ومكانتها ، فقد زعم هؤلاء بأن هذا الدين ظلم المرأة حيث اعطاها فى الميراث نصف الرجل ، وحيث اباح التعدد والطلاق ، والحقيقة على خلاف مايزعم الزاعمون ، لأن الاسلام كرم المرأة ، ورفع عنها الظلم واعطاها حقوقها كاملة ، فقد كانت قبل الاسلام تعانى من تلك النظرة السيئة اليها ، فهي فى اليهودية المحرفة تعتبر سببا فى شقاء الانسانية ، لأنها أخرجت آدم من الجنة ، ولذلك يحجبها اخوها في الميراث في الديانة اليهودية فتحرم معه ولا تأخذشيئا .

واما المسيحية المحرفة فقد احتقرت المراة ، وظلت المجتمعات المسيحية حتى نهاية القرون الوسطى تبحث فى انسانية المراة ، اذ لم يكن هذا المبدا قد تقرر نهائيا بعد .

وكانت المراة فى الجاهلية لاترث ، وعرضة للوأد ، وكان الرجل يعدد بلا حدود او قيود ويطلق كذلك ، وكانت تورث كسائر السلع .

واما القوانين الوضعية فلم تمنح المراة حقوقها حتي الآن ، فالقانون الرومانى اعتبر المراة ناقصة الأهلية ويحجر عليها ، والقانون المدني الفرنسي لايبيح لها ان تتصرف فى

مالها بحرية كاملة ، ولم يعط القانون المدني الألمـاني للمراة حق اقتناء الممتلكات حتى سنة ١٩٥٧ .

فهل ظلم الإسـلام المراة كما يزعم خصومه ؟ ام انه رفع عنها الظلم ، واعطاها كل الحقوق ، وكرمها اعظم تـكريم انه لاموازنة بين ماشرعه الاسـلام ، وماتنادى به المذاهب والقوانين الوضعية ، فهذه امتهنت المراة وسخرتها فى كثير من مجالات العمل التى لاتوائم فطرتها وانوثتها ، ولـكن الإسلام وهو دين العدالة والمساواة والحرية قد حقق للرجل والمرأة معا كرامة الإنسان وعزته ووجوده اللائق به ، وان الأسرة فى ظل الإسلام تنعم بكل مايكفل لها حياة الاستقرار والمحبة والوئام .

*

التكافل

من اخص خصائص الاسلام انه دين التكافل والتعاون على البر والتقوى ، لأنه دين الأخوة والمساواة، ولا معنى لهما بغير التكافل الذى يعبر عن وحدة الأمة، ويؤكد انها كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

والتكافل فى الاسلام ليس مقصورا على الجانب المادي، وليس احسانا وتفضلا كما قد يظن بعض الناس ، وانما هو حق واجب وفريضة مشروعة ، وهو ايضا تكافل يتجاوز الجانب المادي الى سائر جوانب الحياة الانسانية، وهي فى نظر الاسلام اولى من ذلك الجانب ؛ لاثرها في مضاعفة الانتاج ونمو الثروة وتحقيق الرخاء فضلا عن القيم الانسانية التي يشملها التكافل ، وهي قيم يحرص عليها الاسلام ابلغ الحرص ، لأنها تحفظ على الجماعة صدق ايمانها وسمو مشاعرها ، ووثاقة الصلة بين افرادها .

ان بين المسلم واخيه تكافلا معنويا يتمثل فى المحبة والوئام ، والتهنئة عند الخير والمواساة إذا نزل به مكروه او شر ، كما يتمثل في المسئولية نحوه اذا قصر فى واجب أو اتى امراً منكرا ، لان عليه ان يكون المرآة النقية التى تعكس العثرات والزلات ، حتى يتنبه الغافل ، ويرعوى المستهتر ، وتورق دائما اغصان الفضيلة والحياة النظيفة .

والمسلم فى علاقته بأخيه يحب له مايحب لنفسه ، ومن ثم يعامله اكرم معاملة ، فهو يسعى فى حاجته ، ويعاونه في شدته ، ويحسن اليه فى جميع أحواله ويكون له كما روي عن رسول الله صلي الله عليه وسلم: « المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل احداهما الاخرى ».

ومن اجل ذلك حرم الاسلام الربا والاحتكار والغش واكل المال بالباطل ، وهو تحريم يشمل المسلم وغير المسلم، فالإسلام دين الانسانية، فلا يعقل ان يكون هناك اخوة ومحبة ومعهما ربا وغش واعتداء على الانفس والاموال والاعراض ، وبهذا يسود التكافل فى ارفع صوره وارق مشاعره بين المؤمنين ، وهو تكافل معنوي لاتعرفه النظم الوضعية ، لانها تقصره على الاعانات المادية فحسب .

فاذا انتقلنا الى جانب آخر من جوانب التكافل في الاسلام ، وهو جانب له

اهميتا تطالعنا تعاليم هذا الدين في الدعوة الى العمل والتنفير من الخمول والـكسل ، وتحريم المسألة والعيش عالة على الآخرين ، وحق كل انسان فى ان تيسر له الامـة عملا مشروعا حتي لا يكون فيها عضو عاطل ومستهلك فقط ، وبهذا تدور عجلة الانتاج في قوة ، فيزداد الخير ، وتجنى الامة اطيب الثمرات فى مختلف المجالات ، ويتحقق بذلك قوتها وعزتها ، وتعلى كلمة الله فى الارض ، فمنطق الحياة يؤكد ان الامم العاملة هي الامم القوية العزيزة ، وان الامم الخاملة هي الامم الضعيفة المتخلفة المستعمرة .

ان ديننا يدعونا الى اتخاذ القوة بمعناها الشامل ، رهبة للعدو وحمايه للاهل والوطن وذيادا عن الضعفاء ، ولاسبيل اليها الا بالعمل الجاد فى كل ميدان ، ومن هنا قرن القرآن الكريم الايمان بالعمل فى آيات كثيرة وحذر من القول دون الفعل ، وعده مقتا كبيراً « يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون[1] » .

وهذا الجانب فى حيـاة المجتمع الاسلامي يحقق له التـكافل الذى يحمى الأمة من الضعف على تباين صوره ، ويجعل منها أمة عـــزيزة رائدة « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين[2] » .

أما الجانب المادي فى التـكافل فيشمل كل من انقطعت بهم أسباب العيش ، لعجز أيا كان نوعه ، كما يشمل كل من تعرض لخسارة مالية بسبب جائحة[3] أو حريق أو سيل أو دين فى غير معصية ، ولو كان لديه مال ولـكن الدين محيط به ، هذا الجانب من التـكافل ، وإن كان فى شكله ماديا فهو في جوهره تـكافل معنوي ، لحمته وسداه الأخوة في العقيدة ، وحق الرعية على الراعى ، والإيمان بأن المال الذى بأيدبنا إنما هو مال الله ونحن خلفاء عنه فيه ، وعلينا أن ننفق من هذا المال كما أمرنا سبحانه ، « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه[4] » « وآت ذا القربي حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا[5] » .

---

١ – الآية ٢ ، ٣ في سورة الصف .

٢ – الآية ٨ في سورة المنافقون .

٣ – الجائحة : هى الآفة التى تهلك الأموال والثمار وتستأصلها ، وكل مصيبة عظيمة .

٤ – الآية ٧ في سورة الحديد .

٥ – الآية ٢٦ ، ٢٧ في سورة الاسراء .

هذا الجانب من التكافل جعله الإسلام أمراً مفروضاً سواء فى محيط الأسرة أو البيئة أو الأمة بأسرها .

ففى محيط الأسرة فرض الإسلام[1] على القادرين فيها رعاية الفقراء والعاجزين كما وضع نظاماً دقيقاً للميراث يدعم التكافل بين أفراد الأسرة ، ويجمعها تحت لواء التناصر والمودة .

وفى محيط البيئة كالقرية أو الحي مثلا يجب على أفرادها التكافل والتعاون ؛ لأنهم بحكم وحدة البيئة يعرفون مشكلاتهم وقضاياهم ، ويعرفون الفقير والمحتاج بينهم ، فإذا لم يحققوا التعاون والتكافل الذى فرضه الله عليهم ، وأهمل الفقير فيهم حتى بات جائعاً وتعرض للهلاك ، فقد برىء الله منهم[2] واعتبروا بغاة ؛ لأنهم منعوا الحق عن صاحبه ، فللفقير والمحتاج ومن في حكمها حق فى مال الأغنياء – عدا الزكاة – فإذا احتاج الفقراء إلى مطعم أو ملبس أو مسكن ، ولم يقم الأغنياء بتوفير ما يحتاج إليه الفقراء فقد منعوا حقا كتبه الله عليهم « ومانع الحق باغ على أخيه الذى له الحق[3] ».

أما التكافل بالنسبة للأمة كلها فقد حملت رسالته الزكاة ، وهى تؤخذ بنسبة ٢٫٥٪ سنوياً على الثروات المكنوزة فى البلاد ، وعلى رأس المال المتداول فى التجارة ، وفى الإنتاج الزراعى تحصل على أساس ٥٪ أو ١٠٪ ، وفى الماشية بنسبة خاصة وبشروط خاصة .

على أن هذه الزكاة ليست إحساناً فردياً متروكا لضمائر الأفراد وتقديرهم الذاتي ، وإنما هى حق تأخذه الدولة وتقاتل عليه وتنفقه فى مصارف الزكاة ، كما أنها ليست سوى قاعدة واحدة من قواعد التكافل الاجتماعي[4] ، ولولى الأمر الحق – عن طريق الشورى فى أن يفرض على الأغنياء ما يكفى حاجة الفقراء غذاء وملبساً ومسكناً ، قال ابن حزم : « وفرض على الأغنياء من كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ويجبرهم السلطان على ذلك ، إن لم تقم الزكوات بهم ولا فيء سائر أموال المسلمين بهم فيقام لهم بما يأكلون من القوت

---

١ – انظر النسب وآثاره للمرحوم الدكتور محمد يوسف موسى ص ١٢٦ .
٢ – انظر المسئولية في الباب الثانى .
٣ – المحلى ج ٦ ص ١٥٩ .
٤ – انظر اشتراكية الاسلام للمرحوم الدكتور مصطفي السباعي ص ١٢٦ .

الذى لا بد منه ، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف وعيون المسارة[1] » .

وقد اهتم الاقتصاد الإسلامي بتأمين الأطفال واللقطاء وسبق النظم العالمية فى هذه الناحية ، فقد فرض عمر بن الخطاب لكل مولود مائة درهم فإذا ترعرع بلغ مائتين ، كما فرض لكل لقيط مائة درهم ولوليه كل شهر رزقاً يعينه عليه ، ثم يسوى عند كبره بسواه من الأطفال . وكذلك العمال والمرضى ومن فى حكمهم لهم حقوق تكفل لهم حياة فاضلة ، فكل فرد فى المجتمع الإسلامي – دون تفرقة بين الأجناس والأديان – له حق الحياة الإنسانية الكريمة .

والتكافل فى الإسلام لا يعنى فقط – كما أشرت – تأمين الفقراء ومن فى حكمهم على أنفسهم وعلى أولادهم ، ولكنه يشمل أيضاً تأمين أرباب الأموال على مستواهم الذى وصلوا إليه بجدهم فى الحلال ، فقد أمن الإسلام كل فرد على ماله من مسكن أو أثاث أو مال فى التجارة أو غير التجارة ضد الغرق أو الحريق أو الآفات العارضة ، كما ضمن له كل دين ينفقه فى المكارم أو المصلحة العامة .

وقد روى الامام الطبري عن مجاهد فى تفسير الغارمين الوارد ذكرهم فى آية الزكاة وهي : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم[2] » قال: من احترق بيته أو يصيبه السيل فيذهب متاعه ويدان على عياله فهذا من الغارمين[3] .

وقال الامام القرطبي : ويعطي منها (أي الصدقات) من له مال وعليه دين محيط به ما يقضى به دينه فإن لم يكن له مال وعليه دين فهو فقير وغارم فيعطى بالوصفين[4] .

وكان عمر بن عبد العزيز يقول لرجاله في الأمصار : اقضوا عن الغارمين ، فكتب إليه بعض عماله : إنا نجد للرجل مسكنا وخادما وفرسا وأثاثا فكتب إليهم عمر : نعم ، « فاقضوا عنه فإنه غارم » .

---

١ – المحلى جـ ٦ ص ١٥٦ .

٢ – الآية ٦٠ فى سورة التوبة .

٣ – تفسير الطبرى جـ ١ ص ١١٤ ط بولاق .

٤ – الجامع لاحكام القرآن جـ ٨ ص ١٨٣ .

فـكل من تنزل به خسارة مالية فى غير معصية ، يأخذ من سهم الغارمين أو من بيت المال ما يعوض خسارته ويسد خلته ويؤمنه على مستوى عيشه الذى كان ينعم به قبل أن يتعرض لما تعرض له ، وكذلك كل من تحمل دية يطفىء بهافتنة أو يجتث عداوة ويؤلف بين القلوب ، فإنه يأخذ ولو كان غنياً من سهم الغارمين ، حتى لا تـكون مروءته سببا فى املاقه ، وما أروع ما فعله خامس الراشدين ، إذ اعتبر من لديه المسكن والفرس والخادم والأثاث غارما يقضى عنه دينـــه ، فالشخص الذى كان يملك هذه الأشياء فى ذلك العصر كان يستطيع أن يعيش حياة خالية من الشظف وإن كانت لا تعرف الترف ، ومع هذا يعده الخليفة العادل غارما ، وكأنه بهذا يشير إلى أن مسئولية الحاكم تفرض عليه أن يحقق لكل فرد ما يسمى اليوم «بالرخاء أو الرفاهية الاقتصادية».

وبعد فإن الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه الكريم: «إنما المؤمنون اخوة[1]» وإعلان الإخاء بين أفراد مجتمع ما هو تقرير للتـكافل والتضـــامن بين أفراد هذا المجتمع فى المشاعر والأحاسيس وفى المطالب والحاجات وفى المنازل والـكرامات[2] .

إن التـكافل فى الإسلام واسع الدائرة وينعم بخيره المسلمون وغير المسلمين الذين يعيشون في ظل الإسلام ، لان حماية الانسان وتحقيق مستوى لائق من العيش له مبدأ إسلامي وأصل من أصول شريعتنا الغراء .

١ ــ الآية ١٠ في سورة الحجرات .

٢ ــ اشتراكية الإسلام ص ١٠٩ .

الأقليـات

تطلق كلمة الاقليات في العرف المعاصر على الجماعات التي تعيش في دولة ما ولكنها لا تمثل الاكثرية فيها من حيث العقائد الدينية أو من حيث الجنس واللون ، ولم يعرف الإسلام اطلاق هذه الكلمة علي الجماعات التى عاشت فى كنفه واستظلت بحمايته دون أن تؤمن به ، وانما كانوا يسمون أهل ذمة أو ذميين ومعاهدين؛ لما أعطوا من الذمة والعهد فى الحياة الحرة الانسانية .

وقبل الحديث عن الاقليات في الدولة الإسلامية ، ما يجب لهم وما يجب عليهم يحسن الايماء الى طرف من المبادىء التى تتصل بنظرة الإسلام الى غير المسلمين فهذه المبادىء تلقى بظلالها الوارفة الندية على حقوق هؤلاء وواجباتهم في المجتمع الإسلامي .

وأول هذه المبادىء وحدة الرسالات الإلهية من حيث الأصول والقواعد العامة ولذا يجب على المسلم أن يؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسي وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون[1] » .

والمبدأ الثاني حرية العقيدة وعدم اكراه أحد على الدخول في دين الله دون اقتناع عقلي صادق .

ويتفرع عن هذين المبدأين احـــترام كل العقائد وأماكن عبادتها وحماية تلك الاماكن والدفاع عنها .

والمبدأ الثالث أن الاختلاف بين الناس فى العقائد ليس مسوغا للشقاق والصراع ، ويجب على الجميع أن ينبذوا كل اسباب العداوات والخصومات وما كان بينهم من خلاف فى الدين فمرده الى الله يفصل بينهم فيه يوم القيامة « وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الـكتاب كذلك

---

١ — الآية ١٣٦ في سورة البقرة .

قال الذين لايعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون[1] » .

ويتفرع عن هذا المبدأ وجوب التعاون بين الناس كافة على البر والخير وقيام الصلة الطيبة بينهم والمجادلة في كل الأمور وبخاصة أمور العقائد بالتي هي أحسن .

وأما المبدأ الرابع فخاص بقضية الاعتداء على الأمة المسلمة في دينها وحريتها فهذه الأمة ذات رسالة وريادة ولن يتسنى أن تكون كذلك إلا بالعزة والكرامة وعدم الرضى بالدينية ، ومن هنا كان واجبا عليها اعداد القوة دائما للذود عن العقيدة والكرامة وحماية الأهل والوطن ، ومع هذا يأمر الإسلام بعدرد الاعتداء بعدم اضطهاد غير المسلمين واجبارهم على ترك عقائدهم ويكفى أنهم القوا الينا السلم وخضعوا لسلطان المسلمين .

هذه فى اجمال أهم المبادئ[2] التي ترشد المسلمين الى ما يجب عليهم قبل غيرهم سواء كانوا يعيشون معهم أو يعيشون في بلاد خاصة بهم ، وهــــذا الذي يجب يدور في فلك الاحترام وحسن المعاملة والمودة والمجاملة في المناسبات المختلفة حتى الدينية منها كالاعياد ونحوها كما أباح الإسلام الاصهار الى أهل الكتاب وفى هذا تأكيد لمعنى المودة والصلة الطيبة والأخوة الانسانية .

وأوجب الإسلام بالاضافة الى هذا على الدولة المسلمة حماية أماكن العبادة لغــــير المسلمين والاتتدخل في عقائدهم وأن تصون كرامتهم وحياتهم ومستقبلهم كما تصون كرامة المسلمين وحياتهم ومستقبلهم .

على أن غير المسلمين فى المجتمع الإسلامي اما أن يكونوا ذميين أو مستأمنين ، وأولئك هم الذين يعيشون مع المسلمين دائمـــا فهم من ثم جزء من المجتمع ، أما هؤلاء فيعيشون لفترة محدودة ، أداء لمهمة كطلب العلم أو التجارة والسفارة وهم لهذا لا يعدون جزءا من المجتمع أو الدولة ، فهم أجانب يقيمون بإذن من ولي الأمر لفترة محدودة .

ويشترك الذميون والمستأمنون فى بعض الحقوق والواجبات وينفرد كل منهما عن الآخر فيها ، فهم جميعا يتمتعون بالحرية الدينية واقامة أعيادهم وفقا لتقاليدهم كما يتمتعون

---

١ – الآية ١١٣ في سورة البقرة .

٢ – انظر من روائع حضارتنا الدكتور مصطفي السباعى فصل التسامح الدينى .

بحرمة أنفسهم ومساواتهم بالمسلمين فى القصاص ، وليس عليهم واجب الخدمة العسكرية، ومع هذا يخضع الجميع للقانون الجنائي الإسلامى و كذلك القانون المدنى فمن جنى منهم جناية طبقت عليه أحكام الشريعة الإسلامية ومن باع أو اشترى منهم وجب عليه أن يلتزم بالمبادىء التي قررها الإسلام سواء أكان هذا البيع والشراء بين مسلم وذمي أو مستأمن أم كان بين ذمي وآخر من الذميين أو المستأمنين . وهذا لايتعارض مع الحرية الدينية ، لأن دستور الدولة يجب أن يخضع له كل أفرادها وإلا أصبحت الأقليات تمثل دولة داخل دولة وفي هذا انتقاص من سيادة الدولة الإسلامية على جميع رعاياها، وقد كفلت هذه الدولة لجميع الاقليات حرية العقيدة وممارسة الشعائر الدينية والأحوال الشخصية فيما بينهم أما فيما سوى ذلك من القوانين فهم ملزمون بها وخاضعون لها .

وينفرد الذميون فى آن لهم حق العلم والعمل كالمسلمين سواء بسواء ،وأن على الدولة أن تهيء لهم أسباب الحياة الكريمة فهم بعض منها ورعية من رعيتها ، على حين لاتكون الدولة الإسلامية مسئولة عن المستأمنين من حيث كفالة حق العلم والعمل ، ولكنها مسئولة عنهم من حيث الأمن والحماية ، وما دام الذميون جزءا من الدولة فعليهم أن يسهموا فى تحمل أعبائها المالية وكان هذا الاسهام فى صورة فريضة مادية يسيرة تجب على القادرين معهم من الرجال دون النساء والأطفال والكهول والفقراء والمرضى ، وهى فريضة الجزية وهذه الفريضة ليست بديلا عن اسلامهم وإنما هى مقابل ما يجب لهم على الدولة من الحماية و كفالة الحياة الانسانية ، بحيث إذا عجزت عن تحقيق ما يجب عليها نحو أهل الذمة ردت إليهم ما أخذته منهم ، وقد روى أن المسلمين لما جمعوا جموعا للقاء الروم عند وقعة اليرموك واضطروا الى مغادرة جميع البـــلاد المفتوحة فى الشام ، ليستجمعوا قوتهم فى مقام واحد ـ كتب أبو عبيدة ابن الجراح الى امرائه أن يردوا الى الذميين كل ما أخذوا منهم من الجزية والخراج ويقولوا لهم : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فهذه أموالـكم التى أخذناها ، لذلك ترد إليـكم [1] ، فرد جميع أمراء الجنود كل ما كانوا جمعوه من الأموال ، وقد ذكر المؤرخ البلاذرى فى هذا المقام ما غمر نفوس غير المسلمين من المشاعر حينما رد المسلمون أموال الجزية إليهم واعترفوا بعدل المسلمين ، واقسموا بالتوراة ان يدافعوا مع المسلمين والايمكنوا الروم من دخول البلاد [2] .

---

١ ـ كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٨١ .

٢ ـ انظر فتوح البلدان ص ٧ .

وإذا افتقر ذمي لسبب ما كالعجز عن العمل أو المرض سقطت عنه الجزية وأصبح له على الدولة حق الرعاية فتدفع له ما يكفيه ومن يعول ، كما تفعل هذا مع المسلمين ، وقد روي أن عمر رضي الله عنه أبصر شيخاً كبيراً من أهل الذمة يسأل ، فقال مالك؟ قال : ليس لى مال وإن الجزية تؤخذ منى ، فأسقط عنه الجزية ، وأجرى له من بيت المال ما يكفيه ، وكتب إلى أمينه : ما أنصفناه ، والله ، أكلنا شبيبته ، ثم تأخذ منه الجزية فى كبره .

وإن مات أحد من الذميين وعليه شيء من الجزية فلا يؤخذ من تركته وإذا اقتضت ظروف الدولة أن يفرض ولي الأمر على الاغنياء بعض الضرائب ؛ علاجا لمشكلة من المشكلات فإن أهل الذمة كغيرهم من المسلمين يسهمون فى هذه الضرائب ، فهم جزء من الدولة ، وكما ينعمون بخيرها ورخائها يجب عليهم أن يتحملوا بعض أعبائها .

ويشهد التاريخ بأن الأقليات غير المسلمة عاشت في المجتمع الإسلامي حياة آمنة كريمة لم يتعرضوا لأذى أو اضطهاد .

ففى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم عومل اليهود والنصارى أكرم معاملة فقد جاء وفد من نصارى نجران ، فأنزلهم فى المسجد ، وسمح لهم بإقامة صلاتهم فيه ، فكانوا يصلون فى جانب منه ورسول الله والمسلمون فى جانب آخر ، ولما أرادوا مناقشة الرسول في الدفاع عن دينهم استمع إليهم ، وجادلهم ، كل ذلك برفق وأدب وسماحة خلق .

وعلى هدى الرسول الكريم في معاملته لاهل الذمة سار خلفاؤه من بعده ، فهذا عمر بن الخطاب حين يدخل بيت المقدس فاتحا يجيب سكانها المسيحين إلى ما اشترطوه من أن لا يساكنهم فيها يهودي ، وتحين صـــلاة العصر وهو فى داخل كنيسة القدس الكبرى فيأبى أن يصلي فيها ؛ كيلا يتخذها المسلمون من بعده ذريعة للمطالبة بها واتخاذها مسجدا .

وفى المجتمع الإسلامي تعطى الوظائف للكفء المستحق بقطع النظر عن عقيدته ومذهبه ، وبذلك كان الاطباء المسيحيون فى العهدين الاموي والعباسي محل الرعاية لدى الخلفاء ، وكان لهم الاشراف على مدارس الطب في بغداد ودمشق زمنا طويلا .

إن الاسلام دين الانسانية يحترم الإنسان لذاته دون نظر إلى دينه ، ولهذا عاشت الاقليات في المجتمع الإسلامي حياة طيبة ، واعترف بسماحة الإسلام وعدالته المؤرخون الغربيون ، فيقول المؤرخ المعاصر « ولز » فى صدد بحثه عن تعاليم الإسلام : إنها أسست فى العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم ؛ وأنها لتنضح في الناس روح السماحة والكرم ، كما أنها إنسانية السمة ممكنة التنفيذ .

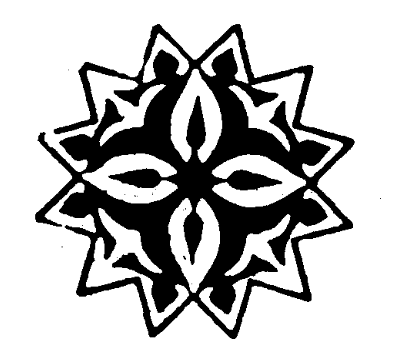
ويقول « سايس » فى وصف الدولة الإسلامية فى عهد الرشيد : وكان المسيحيون والوثنيون واليهود والمسلمون على السواء يعملون فى خدمة الحكومة .

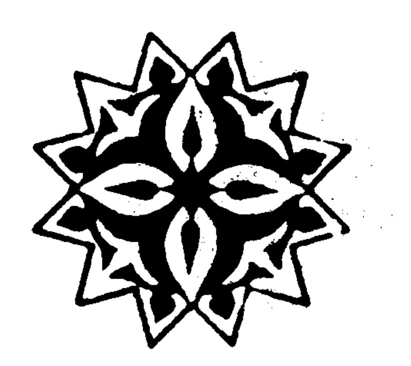
ويقول « جوستاف لوبون » : إن الامم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ولا دينا سمحا مثل دينهم [١].

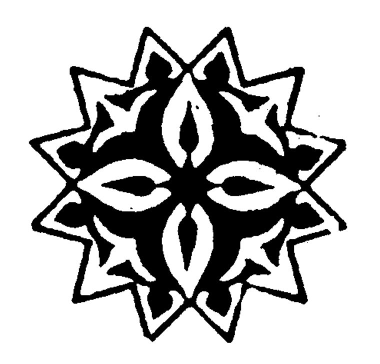
ولا مجال هنا للمقارنة بين حياة الاقليات في الدولة الإسلامية ، وحياة الاقليات الإسلامية في الدول الأخرى ، فما عاشت هذه الأقليات فى الماضى والحاضر إلا حياة الذل والقهر والتعصب والحرمان والصراع الدموي فى بعض الأحيان ، ولكن الإسلام يرفض الاساءة والاهانة لغير المؤمنين به ماداموا لا يسيئون إليه ولا يعادونه ، ولهم حق الحياة الكريمة كالمسلمين لا تميز بين هؤلاء وهؤلاء فالكل في حق الحياة الانسانية الكريمة سواء .

---

١ — انظر من روائع حضارتنا .



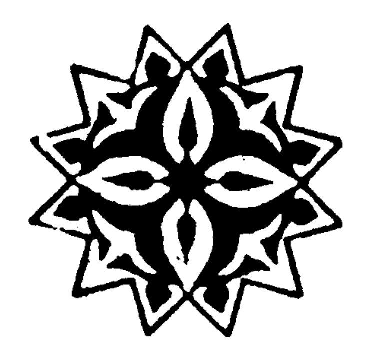




الباب الخامس

عن الحضارة والصراع

١- مفهوم الحضارة وخصائصها في الإسلام
٢- من تاريخنا الحضاري
٣- الصراع بين الإسلام والقوى المضادة منذ ظهور الإسلام إلى نهاية الحروب الصليبية



ومع أهمية تلك العناصر وأثرها فى التقدم الحضاري يلاحظ أنها تكاد تحصر مفهوم الحضارة في أنه تجسيد للنشاط العقلي عند الانسان ، أو أنه مظاهر الرقي العقلي والعلمى والفني والأدبي والاجتماعي فى أمة من الأمم ، ولكن تجسيد النشاط العقلي أو مظاهر الرقي في شتى صوره وألوانه ليس هو الحضارة ذاتها ، وانما هو أثر من آثارها وانعكاس للقيم والمثل التى تقوم عليها وتدعو اليها ، ومن ثم يجب عند الحديث عن حضارة ما أن نتعرف على أصولها ومبادئها قبل الحديث عن مظاهرها المادية المختلفة ، فلا قيمة لأية حضارة اذا لم تكن لها عقائدها وأفكارها التى تخدم الانسان وتحمى حريته وكرامته .

والحضارة الاسلامية قوامها العقيدة والايمان الراسخ بوحدانية الله ومسئولية الانسان عن كل أعماله ، ولذا يسعى المسلم فى الأرض تسدد خطاه وتقوده عقيدته وايمانه وهو فى كل مايأتى ويذر من الاقوال والافعال يراقب ربه ويؤمن بأنه محاسب على كل صغيرة وكبيرة « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ومار بك بظلام للعبيد »[1] .

وطوعا لهذا الأساس العقائدى الراسخ الذي تنفرد به الحضارة الاسلامية فان لهذه الحضارة خصائص عدة أهمها :

حرية العقيدة والفكر واتباع العقل وتمجيده واحترام الانسان والتمسك بالمثل العليا والايمان بالتقدم ، ويتفرع عن هذه الخصائص كل مايمكن أن توصف به الحضارة الاسلامية من مظاهر خارجية ، وبغير تلك الخصائص لم يكن يتسنى لهذه الحضارة أن تبلغ ماوصلت اليه من تقدم ورقي فى جميع نواحى الحياة[2] .

ان الاسلام يرفض مبدأ الاكراه فى الدين فالعقيدة الصحيحة مصدرها الاقتناع القائم على المنطق والوجدان، والاسلام لم يرفع السيف ويحض على الجهاد؛ ليحمل الناس حملا على الايمان به ، وانما كانت الحروب الاسلامية وستظل ردا للاعتداء وحماية للأهل والاوطان وتمكينا للحرية الدينية فى كل مكان، ليصبح اختيار المرء للعقيدة التى يرتضيها بعيدا عن كل ضروب القهر والاضطهاد .

---

١ - الآية : ٤٦ فى سورة فصلت .

٢ - أنظر العرب والحضارة الاوروبية للمرحوم الاستاذ عباس محمود العقاد .

مفهوم الحضارة وخصائصها فى الإسلام

مادام الإسلام دينا عاما ودعوة خالدة إلى يوم الدين فان هـذا الدين القويم صالح لـكل زمان وكل مكان ، وهو من ثم دين حضـارة انسانية تدعو إلى التقدم وتحارب التخلف ، وتحترم الانسان كل الاحترام .

ويجـدر قبل الحديث عن الحضارة فى الاسـلام الاشارة الى أن البشرية عرفت عبر تاريخها الطويل حضارات متباينة ، ولـكن تلك الحضارات عاشت فـترة من الزمن ثم انتهت ولم يبق منها الا بعض آثارها ، ولـكن الحضارة الاسـلامية تختلف عن كل الحضارات التى عرفتها البشرية، فهي حضارة باقية وخالدة وان اعتور مسيرتها وهن أو جمود ، وذلك لان للحضـارة الاسلامية أسسا فريدة قوامها العقيدة الصحيحة والقيم الانسانية الرائعة .

كما يجـدر الاشارة أيضا الى أن الباحثين فى الحضارة وتاريخها يرون أن هناك عدة عوامل تتـكون منها الحضارة ، كما أن هناك عدة عوامل تحول دون قيام الحضـارة أو سيرها وتطورها .

وقد ذكر أحد هؤلاء الباحثين أن عناصر الحضارة أربعة ـ هى [1] :

١ ـ الموارد الاقتصادية .

٢ ـ التنظيمات السياسية .

٣ ـ التقاليد الخلقية .

٤ ـ متابعة العلوم والفنون .

فهذه العناصر هى قوام الحضـارة وأسسها ، وبدونها تصاب الحضارة بالضعف والذبول .

---

١ ـ أنظر من روائع حضارتنا ، وحضارة العرب للدكتور مصطفى الرافعى .

وحرية الفكر الاسلامى مكفولة لكل انسان يحترم عقله ولايبتغيا من وراء فكره الامعرفة الحقيقة والاعتصام بها والذود عنها ، فهو في تفكيره غير مكبل بقيود العصبية ونزعات الهوى ، والاسلام لايضيق بهذه الحرية فهو دين العقل وكل مادعا اليه لايتصادم مع الفكر السوي ، بل فرض الاسلام التفكير واتخذه وسيلة للايمان ونعى على الذين ألغوا عقولهم وقالوا بل وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون نعى عليهم هذا التصرف الذى لايليق بالانسان الذى كرمه الله وجعله خليفة له فى أرضه، ولهذا وصفهم بأنهم كالانعام أو أضل سبيلا .

على أن كفالة الحرية الفكرية وحرية العقيدة فى الاسلام آية من آيات تمجيد العقل وتقديره ، فالعقل في هذا الدين مناط التكليف ، والاسلام يريد من المؤمنين به أن تكون لهم القيادة والريادة فى العقيدة والسلوك والتقدم ، وهم لن يبلغوا هذه المنزلة ويحافظوا عليها إلا بالجهد العقلي البناء ،والعمل المتقن المتصل، ومن هنا كان تقدير العقل وحثه على النظر والتدبر ، ومن يقرأ الكتاب العزيز أو ينظر في أمهات كتب السنة النبوية الشريفة فانه لن يجد آية واحدة أوحديثا واحدا يحد من سلطان العقل وانطلاقه في مجالات البحث والعلم .

ولان الاسلام رسالة عامة للناس كافة احترمت حضارته الانسان كل الاحترام دون نظر الى جنسيته أوعقيدته ، ان الحضارة الاسلامية تسعى بجهدها لخدمة الانسان والسمو به وسعادته في الدارين، وتنأى بقيمها عن النزعا العنصرية أو الطائفية ولهذا نعم بخيرها المسلمون وغير المسلمين على السواء .

وكما احترمت هذه الحضارة الانسان آمنت بالمثل العليا ودعت اليها ، لأنها حضارة تحمى القيم الانسانية والاخلاق الكريمة ، إنها حضارة تريد للبشرية حياة طيبة تظللها مبادىء الأخوة والمحبة والتكافل والفضيلة .

والحضارة الاسلامية إلي هذا كله حضارة تنشد معالى الأمور ، إنها حضارة العزة والكرامة والإباء والبناء ، إنها حضارة تسير كل يوم خطوة الى الامام في سبيل التقدم ، إنها لا ترضى للمسلمين والبشرية كافة حياة التخلف والتوقف وإنما تريد حياة نامية متحركة متجددة ، وسبيل ذلك الهمم العالية والنفوس الأبية وتقدير الوقت والحرص عليه أبلغ الحرص .

إن المسلم لايرضى بالدنية في دينه ودنياه إنه مطالب بأن يخلص في كل عمل يتولاه ويقوم به في اتقان واحسان، كما أنه مطالب بأن يترفع عما لايجدر به من الأقوال والأفعال؛ ليكون دائما صورة مشرقة للعزة والحرية والتقدم ، وليحقق بذلك معنى خلافة الله فى الارض كماينبغى أن تكون ، ولذا كانت الحضارة الاسلامية حضارة المثل الرفيعة والقيم المقدسة إنها حضـارة الإنسانية التى كرمها الله . وسخر لها مافى السموات والأرض جميعا منه .

وجملة القول أن مفهوم الحضارة الإسلامية يتمثل في المبادىء والعقائد التى جاء بها الاسلام ، هداية وسعادة للناس ، وأن أسس هذه الحضارة ــ وقد أسلفت الكلام عن بعضها ــ تؤكد أن الحضـارة الاسلامية حضارة فريدة في تاريخ البشرية ، وأنها تمتاز عن جميع الحضارات بجمعها بين الروح والمادة والدنيا والآخرة ، وأنها بعيدة كل البعد عن الطائفية والعنصرية ، وهى فضـلا عن كل هذا تحترم الانسان وترفض كل ألوان الامتهان والاستغلال ، ثم هى أخيرا حضارة لاتعرف التوقف فهى خالدة وباقية ؛ لأن أسسها وقيمها ــ وقد اشتمل عليها الـكتاب العزيز ــ خالدة وباقية إلى يوم الدين .

وإذا كانت الحضـارة الاسلامية بهـذه الأسس التى أشرت اليها حضارة فريدة وحضارة خالدة ، فانها أيضا حضاره أصيلة ومستقلة فى مبادئها ورسالتها ، وليس زعم المستشرقين من أن هذه الحضارة عالة على غيرها من الحضارات القديمة كالاغريقية والرومانية إلا باطلا من القول ، ومحاولة لنفي الأصالة عن الفـكر الإسلامي ، فقد دأب عامة المستشرقين على التشويه والافتراء واللمز والدس ، لقد كانوا جنودا في وزارة المستعمرات والخارجية ، تحارب بالكلمة الخبيثة والزعم الفاسد .

إن من المعروف تاريخيا أن الحضارات جميعها تأخـذ وتعطى وتفيد وتستفيد ، والحضارة الإسلامية على هذه السنة الشاملة قد أخذت كثيراً وأعطت كثيرا ، ولـكنها إذا وضعت في الميزان كان لها أكثرمما عليها، وكانت لمؤلفاتها العلمية ومنجزاتها الحضارية آثارها الـكبرى فى إبّان ازدهارها وآثارها الباقية فى العصر الحديث [1] .

وقد آتت الحضارة الاسلامية أكلها وازدهرت بعد أن استقرت حركة الفتوحات

---

١ ــ أنظر مطالعات للمرحوم الاستاذ عباس محمود العقاد .

نسبيا ، فقد أصبحت العواصم الإسلامية مراكز اشعاع فكري وغصت المساجد بحلقات العلم وأنشئت المدارس لمختلف الدراسات والأبحاث ونبغ فى كل علم وفن عدد لا يحصى من المسلمين .

والذى لا جدال فيه أن الحضارة الإسلامية صاحبة فضل لاينكر على العالم كله ، وان الحضارة التى ينعم بمنجزاتها الآن هي من آثار الحضارة الإسلامية ، فالحضارة المعاصرة ترجع إلى عصر النهضة ، وهذا العصر يرجع إلى ثقافة المسلمين فى الأندلس وجزر البحر المتوسط، كما يرجع إلى الثقافة التي عاد بها الصليبيون من الديار الإسلامية، فالحضارة الإسلامية وجهت العالم وجهة صالحة كان لها أعظم النتائج فى تاريخ العالم قديمه وحديثه ، واحدى هذه النتائج التى لاشك فيها كشف القارة الأمريكية [1] .

على أنه فى الوقت الذى أخذت فيه أوربا تتلمس طريق النهضة والقوة بفضل الحضارة الإسلامية بدأت هذه الحضارة تجنح إلى الضعف وتصاب بالتخلف لأسباب كثيرة ، أهمها ركود الحياة العلمية الصحيحة بين المسلمين ، وتفرق الأمة الواحدة إلى دويلات متحاربة فى بعض الأحيان .

وإذا كانت أوربا قد بدأت طريق النهضة بفضل العرب والمسلمين فإنها لم تسلك الطريق السوي للحضارة الإنسانية ، ولذا اتسمت حضارة أوربا أو الحضارة الغربية بوجه عام بالعنصرية والمادية ، وبدا هذا واضحاً فى تلك الحملات المسعورة التى استهدفت نهب خيرات الشعوب واستعباد أبنائها ، وفى تلك النظريات العقيمة التى تجعل الرجل الأبيض سيد الجميع؛ لأنه يتمتع بطاقات لا يتمتع بها سواه ، وكذلك فى هذا الجحود الغريب لفضل العرب والمسلمين ، ومحاولة طمس الحقائق للتاريخية الناصعة والنيل من العرب والمسلمين والحديث عنهم فى المحافل الدولية والمؤلفات العلمية والصحف السيارة حديثاً يضع من شأنهم ، ثم هذا الاسراف فى الجري وراء الشهوات والغرائز الهابطة والتنكر للقيم الروحية والأديان السماوية مما أفقد الإنسان فى ظل الحضارة الغربية توازنه النفسى والاجتماعي ، وأصبح القلق يسيطر عليه ويستبد به ، وأصبح الخوف من نشوب حرب كونية لا تدع إنساناً ولا حيواناً ولا نباتاً يراود الجميع .

---

١ — المصدر السابق .

إن الحضارة الإسلامية أنقذت أوربا وغيرها من دياجير العصور الوسطى ، ولـكن أوربا بعد نهضتها سارت فى طريق حضاري غير إنسانى ، وتنـكرت لفضل العرب والمسلمين عليها ، وهى الآن – على الرغم مما بلغت إليه من التقدم العلمى – فى أمس الحاجة إلى الحضارة الإسلامية بقيمها الإنسانية؛ لتنجو البشرية من كارثة ماحقة وليسترد الإنسان ما ضاع منه – وهو ثمين جداً – فى ظل الحضاره المـادية ، غير أن العرب والمسلمين لن يمكنهم أن يقوموا بما قام به أسلافهم فى الماضى إلا إذا أصبحوا فى واقعهم صورة حية واقعية للاسلام وحضارته الخالدة .

*

من تاريخنا الحضاري

أسلفت في الحديث عن مفهوم الحضارة وخصائصها فى الإسلام أن الحضارة الإسلامية أنقذت البشرية من دياجير التخلف والوثنية وأنارت لها طريق الحضارة والمدنية ، وان كانت الحضارة الغربية قد انحرفت عن الطريق السوي ، واتخذت التقدم أداة لامتهان الإنسان بدلاً من أن يكون سبيلا لرقيه وسعادته في كل مكان .

وهذا الذى أسلفته حقيقة تاريخية لا يمترى فيها إلا الجاحدون أو الحاقدون ، ومن ثم يجهر بها كل المنصفين من العلماء والمفكرين ، ومن هؤلاء الفيلسوف الفرنسى « أرنست رينان » فقد قال : إن الآثار والأسفار المحتوية على شتى الفنون والعلوم التى أضفاها علماء الإسلام على الكون والتى نقلتها الحملات الصليبية إلى جميع بلاد الفرنجة ، وما تقدمها من احتكاك بين العرب وأوربا عن طريق الأندلس ، أدى كل ذلك إلى افعام المكتبات الأوربية الخاوية الفقيرة بكنوز لا تفنى من العلم الذي أنتجته قرائح العرب ، وكان من نتائجه انتشار الثقافة والترعرع العلمى فى البيئة الأوربية بأسرها ، كما رفع مستوى شعوبها إلى أفق التمدين الذى نشاهدها عليه الآن[1] » .

وما قاله هذا الفيلسوف فى إجمال فصلته مؤلفات كثيرة ، وكشفت عن الدور الحضاري الرائع الذى قام به المسلمون ، والذى كان الجسر الذى عبرت عليه البشرية وبخاصة أوربا إلى عصر التقدم والحضارة .

إن المسلمين فى الصدر الأول أو القرن الأول كانوا يهتمون بالعلوم التى تفقههم فى دينهم كالتفسير والحديث والفقه ، فلما هدأت حركة الفتوحات نسبياً شمل اهتمام المسلمين كل العلوم والفنون ، ونبغ فى كل علم وفن عدد كثير ، وظهرت آثار هذا التقدم العلمي والحضارى فيما خلفه لنا العلماء والمفكرون من تراث يعد مفخرة من مفاخر الأمة الإسلامية ، وفى انعكاس تلك الجهود العلمية الرائدة على حياة المسلمين ، فقد عاش المجتمع

---

١ – الإسلام والقومية العربية للأستاذ عبد الرحيم فوده ص ٧٦ .

الإسلامي فى ظل حضارة إنسانية اشرت إلى أهم خصائصها فى الموضوع السابق ، على حين كانت سائر المجتمعات – فى ذلك العصر – تعيش حياة الغابة والكهوف .

ففى الأندلس مثلا كانت مدنها تضيئها المصابيح العامة ، وكانت شوارعها مرصوفة وبها آلاف الحمامات ، وعشرات المدارس والمكتبات أما قصورها ومساجدها فقد كانت آية الفن والزخرفة العربية العجيبة ، وما زالت بعض تلك القصور والمساجد قائمة حتى الآن تشهد بأصالة الحضارة وروعتها .

أما مدن أوربا فقد كانت بعد الغروب فى ظلام حالك ، وكانت شوارعها غارقة فى الوحل ، ولم تكن بها مدارس أو مكتبات ، ولذلك كان أشراف أوربا لا يستطيعون توقيع أسمائهم ، بل كان الرهبان يلحنون فى تلاوة سفر الكنيسة[1] .

وما عرفته الأندلس فى ظل الإسلام عرفته كل الأقطار التى دخلها هذا الدين ، لأنه دين الحياة التى تؤمن بالتقدم من أجل كرامة الإنسان والسمو به ، ولذلك لم تكن النهضة العلمية أو الحضارية مقصورة على قطر دون آخر ، وان كانت أكثر ازدهاراً فى مكان دون مكان لأسباب خاصة ، ومن هنا تعددت مراكز الثقافة الإسلامية فهي فى بغداد وخراسان ومكة والمدينة ، ودمشق والقاهرة والقيروان وفاس ، وطليطلة وغرناطة وقرطبة وصقلية وجزر البحر المتوسط ، وغيرها ، وكان العرب والمسلمون أساتذة لغيرهم في العلوم النظرية والعملية ، فهم فى الطب لم يكتفوا بما نقلوه عن اليونان والفرس ، بل وصلوا إلى أعلى درجة علمية في العصور الوسطي ، ويكفى لإثبات ذلك أن كتب ابن سينا والرازى قد ترجمت الى اللاتينية ، ودرست في أول مدارس طبية أوربية وبقيت هذه الكتب تدرس الى القرن السابع عشر .

وفى البصريات كان ابن الهيثم البصري أول من قال ان البصر حين يقع على مادة ما لا يخرج شيئاً من العين ، بل تنعكس أشعة النور من المادة المرئية الى العين ، وبذلك تنطبع الصورة في الذهن ، ويفسرها العقل .

وفى الفلك أقام المسلمون المراصد في مختلف العواصم الإسلامية ، وكانت لهم دراساتهم

---

١ – انظر الإسلام والمستشرقون للمؤلف ص ١٧ .

الفريدة في هذا المجال ، وما زالت أسماء عدد من النجوم والكواكب باللغات الأجنبية عربية الأصل تشيد بفضلهم وتنوه بجهودهم .

وفي الكيمياء كان للمسلمين والعرب اليد الطولى فى هذا العلم ، وتعد جهود جابر ابن حيان وخلفاؤه[1] من أروع ما قام به المسلمون من أبحاث واكتشافات، وكذلك في الجبر والهندسة والجغرافيا والملاحة والتاريخ وعلم الاجتماع والتشريع والفلسفة ، وغير ذلك من العلوم كان المسلمون والعرب رواداً وقادة ، ويكفى أن أول خريطة وضعت للكرة الأرضية كانت من صنع الأدريسى العربي الأندلسى ، وأن أعظم جسر أقيم على نهر التيمز كان من صنع مهندسى العرب ، وأن ابن رشد الفيلسوف هو الذى شرح الفلسفة اليونانية على طريقة مفهومة ، وأصبحت كتبه المعول عليها في التدريس في جامعات أوربا الى القرن الثامن عشر .

أما التشريع فإن العرب - بفضل الإسلام ودستوره الخالد - قدموا للبشرية ثروة تشريعية هائلة شملت مختلف النشاط الإنسانى كله في وقت لم تكن هناك تشريعات بالمعنى الصحيح .

وقد اقتبست القوانين الوضعية مما قدمه العرب والمسلمون،ومن يراجع القانون المدني الفرنسي ومذهب الإمام مالك الذى كان سائداً في الأندلس يلاحظ ان ذلك القانون اعتمد فى كثير من نظرياته ومواده على هذا المذهب[2] .

ولست هنا فى مجال تعداد مظاهر تاريخنا الحضاري ، وانما هي اشارات الى بعض ألوان ذلك التاريخ المشرق الذى يشهد لنا بالفضل وبالدور الرائع الذى قام به أسلافنا فى سبيل تقدم البشرية وتطورها الحضاري .

وهذه الإشارات ليس الغرض من ذكرها التغنى بالماضى والفخر به فحسب ، ولكن الغرض من الحديث عنها هو التأكيد على حقيقة أننا أمة لها ماض عريق ، وأنها قادت الى الخير ، وأضاءت طريق العلم ، ولهذا يجب أن يكون حاضر هذه الأمة أعرق من ماضيها ، وأن تكون حياتها المعاصرة صورة مشرقة للتقدم والحضارة الإنسانية ،

---

١ — انظر جابر حيان وخلفاؤه للأستاذ محمد محمد فياض .

٢ — انظر التشريع الإسلامي واثره فى التشريع الغربى للدكتور محمد يوسف موسى .

وسبيل ذلك أن نعتصم بتعاليم ديننا وأن يبذل جيلنا كل ما يستطيع فى كل ميدان، وأن تكون الإيجابية ومعرفة قيمة الوقت عقيدة لدى الشباب، وأن يتحقق بين الأقطار العربية والإسلامية وحدة جامعة؛ ليصبح التعاون العلمي صورة واقعة، ولتختفى أسباب الضعف من التفرق الذي يبدد الطاقات والقدرات، وبكل هذا تتبوأ الأمة مكانتها وتعيد تاريخها، وتنقذ البشرية الآن من ظلمات الحضارة المادية كما أنقذتها في الماضى من دياجير الوثنية والعصور الوسطى .

*

« الصراع بين الإسلام والقوى المضادة »

لقد نشب الصراع بين الاسلام وأعدائه منذ اللحظات الأولى التى أمر فيها محمد صلى الله عليه وسلم بأن يصدع بأمر ربه ويبلغ رسالته إلى الناس كافة ، ومازال هذا الصراع قائما حتى الآن وكان هذا الصراع من قبل خصوم الدعوة الخاتمة يرمى إلى غاية واحدة هى القضاء على هـذا الدين القويم الذى بعث به الرسول الكريم رحمة للعالمين ، لقد تنوعت أساليب الصراع والكيد وتألبت جماعات ودول على الاسلام تريد أن تجتث جذوره وتقوض حضارته « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

ومع مانجم عن هذا الصراع من أخطار وأضرار فقد ظل الاسـلام الصخرة الشماء التى لاتعبأ بالوعول الحانقة ولاتلقى بالها للقرون التى أصابها ما أصابها ولم تنل ماتريد:

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

ولكن هذا لايعنى أن الخطر الذى يكمن وراء هـذا الصراع لا قيمة له ولاخوف منه ، لأن الاسلام لايعيش كدين عالمي انساني خالد الا عن طريق الايمان به والذود عنه والجهاد فى سبيله ، وذلك الصراع أثر بلا جدال في العقيدة والسلوك والعادات بين المسلمين ، وهـذا سر مانراه فى العصر الحاضر من اضطراب فكري حول الاسـلام وصلاحيته لكل زمان وكل مكان ، ومن ثم يصبح لموقف أعداء الاسـلام خطورة جسيمة ؛ لأنه إن نجح فى صرف المسلمين عن جوهر إسلامهم فهم سيتركون كل ماله صلة أساسية بهذا الدين ، وتكون قبلتهم نحو الافكار والعقائد التى يروج لها أعداؤنا ، وبذلك تذوب الشخصية الإسلامية وتفنى فى غيرها ، وتكون النتيجة ضياع الإسلام والمسلمين ، ولهذا كان لامفر من السعي المخلص لوقف التيارات الفاجرة والعودة الجادة لأحكام الإسلام جميعها ؛ حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله .

إن الإسلام كدين سماوي لم ينله تحريف أو اضطراب فى نصوصه المقدسة كما حدث لبعض الديانات السابقة عليه وسيبقى الاسلام هكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ مصداقا لقوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » ولكن كما أومأت آنفا

يجب على المسلمين إن أرادوا لانفسهم العزة والسيادة أن يدافعوا عن دينهم وأن يقفوا بالمرصاد لكل من يريد بهذا الدين شرا أو مكرا ، فآثار هذا الشر والمكر لن ينال أو صابها غير المسلمين .

عندما نزل قوله تعالى « يأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولاتمنن تستكثر ولربك فاصبر » نهض محمـــد بن عبد الله ونادى العرب حتى تجمعوا حوله ولما عرض عليهم الإسلام هزئوا به وسخروا منه ، وقال طاغيتهم : تبا لك ألهذا جمعتنا .

وبدأت الصعوبات تواجه الدعوة الجديدة وهى فى مهدها ، لقد وقفت قريش ضد محمد صلي الله عليـه وسلم وحاول أهل مكة بكل مايستطيعون من وسائل أن يحولوا بين محمد ومايريد، ولـكن محاولات الجاهلية على كثرتها وتنوعها باءت بالخسران والهزيمة، وانتصر الحق وعلت كلمة التوحيد ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

لقد أخذ النور الذى جاء به محمد يغزو القلوب وينير العقول ، وأخذ الشرك يسوم هؤلاء المهتـدين صنوفا من الاذى والاضطهاد ، وما كانت قريش تتعرض للرسول كما تتعرض لاصحابه ، يسبب عمه أبى طالب ، فله فى مكة منزلته الجليلة وقد وقف مع ابن أخيه يذود عنه ويعطف عليه بالرغم من أنه لم يؤمن بما جاء به .

ولما رأت قريش أن أبا طالب يحمى الرسول مشى رجال من ساداتهم وكلموه فيه وطلبوا منه إما أن يكف ابن أخيه عنهم أو يخلى بينهم وبينه ، ورد أبو طالب رجالات قريش بالحسنى، وظنوا أن أبا طالب سيحمل ابن أخيه على مايريدون، ولـكنهم فوجئوا بأن الرسول الـكريم مضى فى طريقه يبلغ رسالة ربه غير عابيء بما تضعه الجاهلية من أشواك أمامه وأمام الذين اهتدوا بدعوته .

وذهب أشراف قريش مرة ثانية إلى أبي طالب واتسمت لهجتهم في الحديث معه هذه المرة بالحدة والتهديد بالحرب إن لم يمنع ابن أخيه مما يقوم به من سب آلهة قريش ، واحتار الشيخ الوقور بين مشاعره نحو ابن أخيه وإحساسه بالانتماء إلى قومه ، ولم يجد خلاصا مما هو فيه إلا أن يبعث إلى ابن أخيه وينهى اليه ماقاله زعماء قريش ، ثم أردف هذا بقوله : (ابق على نفسك وعلى ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق) وظن الرسول أن عمه قد تخلى عنه فقال قولته التى أصبحت شعارا للفداء وثبات اليقين : ياعم لو وضعوا

الشمس في يمينى والقمر في يسارى على أن اترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته . وهنا قال أبو طالب : « اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشىء أبدا » .

وتتابعت الأحداث بعد ذلك ، مضت قريش في تعذيب المستضعفين والأرقاء فما أجدى‌هذا العذيب شيئا وقد لجأ بعض المسلمين إلى الحبشة؛ فرارا من البطش والاضطهاد ولما رأت قريش أن كل محاولاتها المحمومة ضد الدعوة الوليدة قد باءت بالهزيمة وراعها أن أنصار الإسلام يزداءون كل يوم وأنهم يجدون من يحقق لهم الامن والاستقرار فى غير مكة ضم زعماءها مجلس تشاوروا فيه وانتهوا الى قرار جائر شمل بنى هاشم وبنى المطلب جميعا من آمن به ومن لم يؤمن به دون أن يكون ضالعا مع أعداء محمد فى حربه .

وكان هذا القرار يقوم على مقاطعة كاملة لبنى هاشم وبنى المطلب فلا يبايعونهم ولا يخالطونهم ولا يتزوجون منهم ولاينكحونهم ولايقبلون منهم صلحاً أبدا وكتبوا هذا القرار الظالم في صحيفة وعلقوها فى جوف الكعبة في سنة سبع من المبعث .

وقاسى النبي والذين معه من هذه المقاطفة ماقاسوا فقد عاشوا فى الشعب محصورين نحو ثلاث سنوات أكلوا فيها ورق الشجر من الجوع ، ولكن هذه المقاطعة لم تنل من القلوب المؤمنة وإن كانت قد تركت آثارها على الجسوم الهزيلة .

وحدث بعد ذلك أن مات أبوطالب في السنة العاشرة وبعده بثلاثة أيام ماتت السيدة خديجة رضي الله عنها ، وحزن الرسول حزنا شديدا لموتها وسمى العام الذى ماتا فيه بعام‌الحزن واشتد أذى قريش‌للرسول بعد وفاة عمه وزوجته ، وخرج‌الرسول من مكة يوما باحثا عن أنصار وقوم يقبلون رسالته فذهب إلى الطائف ولما عرض دعوة الاسلام على أهلها سخروا منه وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويرمونه بالحجارة في صورة كريهة تبعث على الأسى والألم .

وحين أدركت قريش أن محمدا وجد لدعوته أنصارا في يثرب ورأوا أنه مصر كل الاصرار على ما أمره‌الله به‌دبرت أمرها بليل، وأطبقت كلمتها على قتل الرسول بطريقة تجعل دمه مفرقا بين القبائل « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » . ونصر الله نبيه وأنقذه من كيد الكافرين والجاهلين « الا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا » .

وكانت الهجرة من مكة إلى يثرب ، وهذه الهجرة لم تكن فى الواقع فرارا وهروبا ولكنها كانت أسلوبا عمليا فى نشر الاسلام والدعوة اليه بعد أن فقد الرسول الأمل فى مكة ، فالشرك فيها صيرها بيئة فاسدة لاتصلح لنشر تلك الدعوة الجديدة .

ولكن هل كانت الهجرة نهاية للقوى المضادة وبعبارة أخرى هل وضعت الهجرة حداً للصراع بين الاسلام وأعدائه . إن المسلمين إذا كانوا قبل الهجرة قد تعرضوا للاذي من قبل قريش فإنهم بعد الهجرة تعرضوا للكيد والحرب من اليهود فى المدينة وخارجها وكذلك المنافقين وقريش أيضا ؟ لقد كثر المناوئون وتنوعت أساليب الخصومة غير أن الإسلام صار في المدينة قوة تحمل السيف؛ لتدرأ عن نفسها الاخطار ولهذا خاض المسلمون بعد الهجرة بنحو عامين معركتهم الأولى فى بدر تلك المعركة التي نصرهم الله فيها نصراً عزيزاً ، وكان هذا النصر بداية النهاية لدولة الشرك والنفاق والكيد فى الجزيرة العربية .

إن اليهود فى المدينة بعد نصر المسلمين فى بدر أظهروا حقدهم على الإسلام والمسلمين، وأخذوا ينقضون العهود والمواثيق التي أبرموها مع رسول الله عليه وسلم ، وكان من أساليب مكرهم إثارة أسباب العدوات الجاهلية القديمة بين المسلمين ، وكذلك التحالف السري مع أعداء الإسلام، فقد روي أن اليهود حين اجتمعت كلمة الاوس والخزرج وأصبحوا بلا عداوات ولا ثارات؛لأن الإسلام طهر قلوبهم ووحـد بينهم ، قاموا بإرسال عيونهم لبعث الضغائن القديمة والاحقاد الجاهلية ، وكادت الحرب أن تنشب بين القبيلتين لولا أن الرسول الكريم تدارك الأمر بحكمته وقضى على الفتنة فى مهدها ، وأدرك المسلمون أنها فتنة الشيطان تريد بهم الضر والمكروه فالقوا سلاحهم وتعانقوا ، وعاد إليهم الاخاء والصفاء والسلام والوئام .

واليهود فى غزوة الاحزاب قاموا بدور خطير كان يستهدف ابادة المسلمين ولكن الله خيب مكرهم وتدبيرهم ، وكانت عاقبة جميع القبائل التى حاصرت المدينة واضمرت لها السوء الهزيمة والفرار .

وتعددت المعارك الحربية بين الإسلام وأعدائه ، وكان النصر في النهاية لكلمة الحق ورسالة الصدق، وعاد المسلمون إلى مكة التى خرجوا منها تاركين كل ما يملكون، فداء لعقيدتهم وحريتهم ، وطهروا البيت الحرام من الأوثان والأصنام ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

وبحجة الوداع التى خطب فيها الرسول خطبته المشهورة أتم الله النعمة وأكمل الدين ، وأصبحت الجزيرة العربية كلها تدين بدين واحد وهو الإسلام .

ولحق الرسول بالرفيق الأعلى وبموته واجه الإسلام لونا جديداً من القوة المضادة ، تمثل فى فتنة المرتدين ، وهؤلاء كان منهم من رفض إيتاء الزكاة ؛ بحجة أن الله أمر نبيه بأخذها من المسلمين؛ ليطهرهم ويزكيهم فمن بعده لا يستطيع أن يقوم بهذه المهمة ، ومنهم من عاد إلي جاهليته وعقائده الفاسدة ، ومنهم من ادعى النبوة حقدا على الإسلام والمسلمين ، ورغبة فى السلطان ومتاع الحياة الدنيا .

وكادت هذه الفتنة تدمر البنيان الذى شيده الرسول وكافح من أجل اقامته على أسس راسخة من الإيمان والتقوى، ولكن حزم الخليفة الأول قبر الفتنة وقضى على دعاتها والقائمين بها ، فقد أرسل الجيوش لمحاربة المرتدين جميعا واستشهد من المسلمين خلق كثير ، غير أن النصر كان حليفهم وكانت الهزيمة المنكرة لأعداء الله ، وبذلك عادت الجزيرة العربية إلى حظيرة الإسلامية تنفذ تعاليمه كاملة وتؤدى شعائره وافية وتستعد الانطلاق من أجل تبليغ دعوة الله الخاتمة إلى كل مكان .

وانتشر الإسلام في فترة وجيزة فى بلاد كثيرة ودخل فى هـــذا الدين أمم لها حضارات قديمة ومعتقدات دينية مختلفة ، وقد كان من بين الذين دخلوا في الإسلام طائفة أسلمت ولما يدخل الإيمان قلوبها ، لقد رأت أن تسير مع التيار ؛ لانها أعجز من تناوئه غير أنها اضمرت السوء والمكر وتحينت الفرصة للقيام بدورها فى محاربة الإسلام عن طريق الفكر والعلم بعد أن عجزت من حربه عن طريق السيف والحرب .

وقد أتيحت هذه الفرصة بعد أن استقرت حركات الفتوحات نسبيا ، وبدأت المساجد في العواصم الإسلامية تغص بحلقات العلم والدرس ، لقد رأى اعداء الاسلام أن المجال أصبح مهيئا لنفث سمومهم واطلاق سهامهم تحت ستار العلم والمعرفة ، والناس فى ذلك العهد يثقون بالعلماء ويأخذون آراءهم ومروياتهم دون شك في صحتها أو طعن فى صدقها ، وأنهم إن سمعوا عالما يقول : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم ، اشرأبت إليه الاعناق وتلقوا ما يرويه من السنة النبوية وهم لايشكون أدنى شك فى أن هذا الذى يسمعون هو عين ما قاله الرسول الكريم ، ومن هنا كان نشاط اعداء الإسلام متمثلا فى تصدر حلقات العلم وإذاعة كل ما يرضى أحفادهم ويعبر عن كراهيتهم ورغبتهم فى

النيل من الإسلام والمسلمين ، وقد برز هذا النشاط العلمي الخادع فى ثلاثة مجالات هى :ـ

١ ـ وضع الأحاديث النبوية .

٢ ـ ادخال الاسرائيليات فى التفسير .

٣ ـ اثارة الشكوك حول العقيدة .

وأما الأمر الأول فإن وضع الأحاديث النبوية قد ظهر بعد عهد الخلفاء الراشدين، وكانت أسباب هذا الوضع ترجع إلى وجود الفرق المختلفة كالشيعة والزنادقة والرافضة، فقد كانت لهؤلاء مبادىء يحرصون على إذاعتها ونشرها ، وما كانوا يتحرجون فى سبيل ذلك أن يخترعوا الاحاديث اختراعا ، وقد غنم اعداء الإسلام فرصة وجود هذا الصراع بين الفرق المختلفة التى عرفها العالم الإسلامى بعد الفتنة الكبرى وشمروا عن ساعد الجد ، وأذاعوا بين المسلمين أحاديث مكذوبة يريدون من ورائها تمزيق وحدة الأمة وبلبلة أفكارها ، وتشويه مبادىء الإسلام ودفع الناس إلى الجري وراء القشور دون اللباب ، وقد نجح أعداء الإسلام فى هذا إلى حد ما ، ولكن علماء الحديث نهضوا فى القرن الثانى والثالث وطهروا السنة النبوية من المكذوب والموضوع ، وكانت لهم شروط صارمة سواء فى متن الحديث أو سنده ليكون مقبولا صحيحا ، وكانت هذه الشروط تمثل وما زالت المنهج العلمي فى تحقيق النصوص وروايتها ، وهى تشهد للمسلمين بأنهم أول من وضعوا شروط المنهج العلمي فىالبحث والدراسة وظهر نشاط هؤلاء العلماء فيما خلفوه لنا من آثار علمية تبرز فى جلاء كيف جاهد القوم في تخليص السنة مما شابها وتدوينها تدويناً قائماً على أصول منهجية سديدة ، وهذه الآثار هى : صحيح البخارى، وصحيح مسلم ، وموطأ الامام مالك ، وسنن أبى داود والترمذى والنسائي وابن ماجه ومسند الامام أحمد بن حنبل .

وإذا كان هؤلاء العلماء قد عنوا بجمع الأحاديث الصحيحة فقط فهناك من قام بتأليف الكتب فى الأحاديث الموضوعة ، ومن أشهر الكتب فى هذا الباب كتاب « اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة » للامام جلال الدين السيوطى ، وقد رتبه على كتب وأبواب؛ ليسهل الكشف بوساطتها عن الحديث ، وذلك حتى يكون المسلمون على بينة من السنة ، صحيحها وسقيمها ، فهي المصدر الثانى للتشريع ، وعليها المعول فى تفصيل الأحكام التى جاءت مجملة فى القرآن الكريم .

والحديث عن الاسرائيليات فى التفسير وخطورتها على الـكتاب العزيز وكيف أنها كانت عملا ضد الإسلام ومحاولة للقضاء على هذا الدين الحق يحتاج إلى بحث مستفيض يكشف النقاب عن نقاط الموضوع كله فى تفصيل ولـكن لا مجال الآن لهذا ، ويمكن الاكتفاء بالاجمال وببيان درجة الخطورة التى تمثلها الاسرائيليات فى التفسير .

تطلق كلمة الإسرائيليات على كل ما أخذه المسلمون من أهل الـكتاب سواء أكانوا يهودا أم نصارى ، ولـكن الملاحظ أن أكثر ما أخذه المفسرون كان من اليهود وهؤلاء لهم موقف من الإسلام والمسلمين واضح وهو موقف الكيد والعداوة والحرص على الإساءة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وقد سعى اليهود بعد أن انتصر الإسلام وعلت كلمته ودخل الناس فى الدين أفواجا إلى أن يذيعوا بين المسلمين من المرويات والاخبار ما يلهى ويصرف عن قيم الإسلام الخالدة بالإضافة إلى زعزعته المبادىء وتسرب الشك إليها أو الاضطراب فى العمل بها وقد ذكر ابن خلدون[1] أن الأسبـــاب التى دفعت بالمفسرين إلى الأخذ بالاسرائيليات ترجع إلى أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا عـلم ، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية ، وإذا تشوفوا إلى معرفة شىء مما تتشوف إليه النفوس البشرية من أسباب المـكونات وبدء الخليفة وأسرار الوجـــود فإنما يسألون عنه أهل الـكتاب قبلهم ويستفيدون منهم وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى . وما أشار إليه ابن خلدون من أن المفسرين أخذوا عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى بسبب الأمية التي كانت غالبة على العرب ولأن أهل الـكتاب كانوا يحدثون ببعض الأخبار الخاصة ببدء الخليفة والملاحم وغيرها مما تشتاق النفوس إليه . لا ينفى أن أهل الكتاب حرصوا أبلغ الحرص على إذاعة الأخبار والروايات التى تحقق أغراضهم فى صرف المسلمين عن كتابهم ودستور حياتهم والهائهم بالأخبار التى لا جدوى منها .

على أن ادخال الإسرائيليات فى كتب التفسير لم يشمل كل هذه الـكتب وإنما اقتصر على بعضها ، وبخاصة تلك التى اهتمت بالتفسير بالمأثور ، ومع هذا تنبه العلماء قديما وحديثا لهذا الخطر وحذروا منه وأشاروا إلى مظاهر حتى لا يغتر أحد بها أو يقع فريسة لها.

وحاول أعداء الإسلام أن يلجأوا إلى ميدان فـكري آخر لهدم حصون الدين وكان هذا الميدان متصلا بعلم الكلام أو التوحيد والفلسفة الإسلامية بوجه عام ، فقد أخذوا

---

١ — انظر المقدمة .

يثيرون كثيراً من القضايا التى لا تحمى العقيدة من الزيغ ، والايمان من الاضطراب ، وإنما تدخل على العقيدة الصافية الكدر، وعلى الإيمان الخالص الشك والقلق ، وقد ساعد على هذا ترجمة ما يسمى بعلوم الأوائل وكان هذا فى العصر العباسى الأول ، ولهذا شهدت الحياة الفكرية والعلمية صراعاً بين الأفكار الدخيلة والفرق الإسلامية التى أخذت تدافع وتناضل من أجل تطهير الثقافة الإسلامية من الشوائب ، ولتظل دائماً نقية تهدى للتى هى أحسن .

ومن أمثلة الأفكار التى أثارها خصوم الإسلام وكانت محوراً للجدال فى حلقات الدرس المتشابه من الآيات القرآنية وقضية خلق القرآن وصفات الله تعالى ، وغير ذلك من المسائل التى كثر الكلام حولها وألفت الكتب فيها .

وإذا كان الإسلام قد واجه هؤلاء الأعداء تحت ستار العلم وقناع البحث فإن هناك أعداء لم يرتدوا مسوح العلماء، وكانوا فى عدائهم وضلالهم متوقحين ، لقد أرادوا بكتاب الله التغيير والتبديل والتحريف والنقص والزيادة كما سلكوا فى الحياة مسلك التحدى السافر للاسلام، فأتوا من الموبقات ومن الانحرافات ما لا يقره شرع أو قانون، غير أن كل هذا النشاط المحموم ضد الإسلام والمسلمين - وإن كان قد ترك آثاراً سيئة فى محيط الجماعة الإسلامية - لم يكتب له البقاء والاستمرار وتوارى كما يتوارى كل باطل يدفعه الحق و كذب يبطله الصدق .

ودفعت ظروف المسلمين السياسية في أواخر القرن الخامس الهجري إلى سعى الكنيسة فى أوربا للانقضاض على الإسلام في المشرق لاجتثاث جذوره والقضاء على معاقله وحصونه و كانت الكنيسة منذ استقر الإسلام فى الأندلس وجزر البحر المتوسط تتوجس خيفة من الإسلام وترى فيه عدواً لدودا لها ؛ لأنه بما يدعو اليه من الوحدانية ونفي الوساطة بين الخالق والمخلوق واحترام العقل وحضه على النظر والتدبر يحارب أفكار الكنيسة التى كانت تقوم على الطلاسم والألغاز والهيمنة المطلقة على الناس في الدنيا والآخرة ، لذلك كانت الكنيسة تحاول منع الشباب الذى كان يفد الى مراكز الثقافة الإسلامية في صقلية وقرطبة وغيرها من الأقطار الإسلامية التى كانت مساجدها جامعات تخرج المفكرين والعلماء في مختلف المجالات العلمية - كانت تمنع هؤلاء الشباب من الذهاب الى هذه المراكز .

ولم تجد محاولات الكنيسة شيئاً في صد الشباب عن الاغتراف من مناهل العلوم

الاسلامية ورأت أن صمتها ازاء هذا الزحف الوضاء سيقضى على سلطانها ويبدد تأثيرها ويلغى صكوك الغفران التى كانت تدر عليها المـال ، وتضفي عليها هالة من القداسة والاكبار ، ووجدت أن النهي المباشر لن يؤتي ثمرته وأنه لا بد من عمل ايجابي يوقف هذا الزحف أو على الأقل يحد من اندفاعه وجاذبيته ، فبـــدأ جماعة من الرهبان يدرسون العلوم الاسلامية رائدهم في ذلك تتبع العورات وتلمس الشبهات بالاضافة الى أن هذه الدراسة تدفع بهم الى الرقي في مجالات الرهبنة .

وبمرور الأيام تضاعف نشاط هؤلاء الرهبان وكانوا هم النواة الأولى للاستشراق وأخذوا يذيعون بين أقوامهم الافتراءات ويؤلفون الـكتب المملوءة بالمثالب والأحقاد ولـكن تيار الحضارة الاسلامية لم يلق بالا لهذه الزوابع الحاقدة واستمر في جريانه غير عابىء بما قد يعترض طريقه من حقد الحاقدين وضلال المفترين وتعصب الحانقين .

وأدركت الكنيسة أن الرهبان ونشاطهم العلمى لم يحقق لها ما تريد وأتاح التمزق الذى شهده العالم الاسلامى فى القرن الخامس الهجري، وظهور كثير من الدول المستقلة عن الخلافة فى بغداد اتاح هذا للـكنيسة فرصة العمل العسكرى ضد الاسلام والمسلمين وكانت الموعظة التى ألقاها البابا أوريان الثانى في مجمع كلرمونت سنة ١٠٩٥ م وحث فيها العالم المسيحي على الحرب لتخليص القبر المقدس من المسلمين، وقد وعدهم بأن تكون رحلتهم الى الشرق بمثابة غفران كامل لذنوبهم كما وعدهم بهدنة عامة تحمى بيوتهم خلال غيبتهم – كانت هذه الموعظة الشرارة التى اشعلت نار الحملات الصليبية وقد عرفت هذه الحملات بالصليبية ، لان الصلبان وزعت على الحاضرين فى مجمع كلرمونت ؛ رمزاً للدعوة الى حمايته ، ولذلك كان المحاربون يحملون على صدورهم رمز الصليب .

وتلاقت رغبة الـكنيسة مع رغبة نبلاء أوربا فى أن هؤلاء كانوا يستهدفون المغانم وتأسيس الامارات والمغامرة من أجل المال والنفوذ، ولذلك أسرع كثير منهم للاشتراك فى تلك الحملات التى كثر عددها فقد بلغت نحو عشر حملات، وقد استطاعت أن تحتل أجزاء من الوطن الاسلامي وتـكوين أربع ممالك فى منطقة فلسطين والشام ، ومكث الصليبيون نحو مائتى عام فى بلاد الاسلام، ولـكن صلاح الدين الايوبي استطاع بعد أن قضى على الفرقة بين المسلمين أن يخوض ضد الوجود الصليبي معارك متعددة كان أشهرها

معركة حطين التى كانت بداية النهاية لتلك الحملات المسعورة الحاقدة التى أفسدت وارتكبت من الجرائم الوحشية والهمجية ما لا مثيل له في تاريخ البشرية[1] ، ومن يقرأ تاريخ الحرب الصليبية تروعه تلك الجرائم التى ارتكبت فى ظل القبر المقدس ، ولا مجال هنا لتفصيل القول فى تاريخ هذه الحرب ويكفى القول بأنها كانت تمثل عداء مسلحا باغيا ، وأن لها آثارها المختلفة فى العالم الإسلامي وفى أوربا .

أما آثارها فى العالم الإسلامى فإنها تتجلى فى الدمار والخراب الذى خلفته تلك الحروب الكثيرة فى خلال مائتى سنة ، لقد خرج العالم الإسلامي من الحروب الصليبية منهوك القوى بعد أن بذل من الضحايا والأموال ما لا يقع تحت حصر ، ولذلك كانت تلك المرحلة التى تلت الحملات الصليبية بداية التأخر والتخلف والانكماش والضعف ، وساعد على ذلك غارة التتار الوحشية على العالم الإسلامى ، والتى حيل بينها وبين الانسياح فى كل البلاد الإسلامية لتنشر الرعب والفتك بالإنسان وغير الإنسان معركة « عين جالوت » التى أنقذت البشرية والحضارة الإنسانية من خطر ماحق وشر مستطير ، كما ساعد على ضعف العالم الإسلامى التسلط التركي الذى كان فى مظهره صورة من صور الخلافة وجمع كلمة المسلمين تحت قيادة واحدة ، وما هذا إلا أن الاتراك لم يشغل بالهم غير جباية الضرائب وجمع الأموال ، اما العمل من أجل التقدم والنهضة والبناء فقد كان لا يشغل بال احد من الولاة أو الخلافة فى الآستانة .

وإذا كانت تلك بعض آثار الحروب الصليبية فى العالم الإسلامى فإن آثارها فى أوربا كانت على العكس من تلك ، الآثار لقد كانت نهاية هذه الحروب بداية النهضة الأوربية التى أرست قواعد الحضارة المعاصرة وذلك لأن أوربا استفادت من المسلمين والعرب فى مجالات الأخلاق والقوانين والنظم واحترام العقل الانسانى ونبذ الخرافات والأوهام والأساطير ، فأوروبا كانت تعيش فى ظلام العصور الوسطي حياة التخلف والجهل والشعوذة وكان المسلمون أرقى من الأوربيين بفضل الاسلام الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور ، وهيأ

---

١ – قال المؤرخ أبو الفداء في تاريخه : « ولبث الفرنج يقتلون في المسلمين اسبوعا وقتل من المسلمين فى المسجد الاقصى ما لا يزيد عن سبعين ألف نفس منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن جاور في ذلك الموضع الشريف وغنموا ما لا يقع عليه الإحصاء ووصل المستنفرون الى بغداد في رمضان فاجتمع اهل بغداد في الجوامع واستغاثوا وبكوا حتي انهم افطروا من عظم ما جرى عليهم .

لهم أسباب العلم والحضارة الإنسانية، فلما حدث هذا الاحتكاك الحربي، واطلعت أوربا على تراث الإسلام الخلقي والعلمي – وقد عملت على نقل بعضه إليها – أدي ذلك إلى تفتح الأذهان والأفكار وظهور الدعاة والمصلحين الذين حاربوا التخلف والتسلط الكنسي والارهاب الدينى، ومن هنا شهدت أوربا عقب الحروب الصليبية صراعاً رهيباً بين زعماء الاصلاح ورجال الكنيسة تمخض عن الفصل بين الدين والدولة وتقلص نفوذ الكنيسة، ويضاف إلى ذلك الأثر الهام للحروب الصليبية أن هذه الحروب ساعدت على تنشيط التجارة بين الشرق والغرب فكان هذا من عوامل النهضة الأوربية أيضاً .

وجملة القول أن الصليبيين جاءوا لمحاربة الحضارة الاسلامية فعادوا بها إلى ديارهم، وكانت هذه الحضارة النور الذى بدد ظلام الجهل والتخلف وقضى على الهمجية وحياة الغابة والقهر الفكري فى أوربا .

ولكن هل نسيت أوروبا ذلك الجرح الدامى الذي أصابها على أيدى الأبطال الذين قادهم صلاح الدين . إنها لم تنس ذلك على الرغم من المكاسب الحضارية التى حصلت عليها أوربا؛ نتيجة حملاتها على البلاد الاسلامية . لقد ظلت تتحين الفرص للانقضاض على هذه البلاد وتمزيق أوصالها واستغلال خيراتها واستعباد أهلها فترة طويلة حتى كانت الحملة الفرنسية على مصر فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، فهذه الحملة تعد الشرارة الأولى للهجمة الصليبية الجديدة على الاسلام والمسلمين، وقد تميزت هذه الهجمة التي ما زالت قائمة حتي الآن وإن تزيت بمختلف الأشكال والألوان، تميزت بالتعاون الوثيق بين السياسة والعلم من أجل غاية واحدة هي تحطيم الاسلام والمسلمين تحطيما عقائديا وحضاريا ومسخ الشخصية الاسلامية والقضاء على خصائصها الذاتية، لتذوب فى غيرها وتفقد طوعاً لذلك أصالتها واستقلالها فيسهل التحكم فيها والسيطرة عليها وابعادها عن تراثها وتاريخها؛ لتصبح « هولامية » لا كيان لها تعرف به وتفخر بأمجاده وتحرص على الحفاظ عليه والذود عنه والاستشهاد فى سبيله .

لقد أيقنت أوروبا بعد الحملات الصليبية أن الاسلام هو مصدر الخطر على مطامعها فى الشرق، ومن أوضح الشواهد على ذلك ما قاله غلادستن فى مجلس اللوردات الانجليزى فى أواخر القرن الماضى وقد حمل فى يده القرآن الكريم : ما دام هذا الكتاب موجوداً فى الأرض فلا مطمع لنا فى اخضاع المسلمين .

ومن الشواهد على ذلك ما قاله اللنبي عند ما دخل فلسطين بجيوش العرب : الآن انتهت الحروب الصليبية ، ولما دلف الانجليز إلى قبر صلاح الدين قال قائدهم: ها نحن قد جئنا يا صلاح الدين . هذه الشواهد وغيرها مما لا مجال لحصره وذكره تؤكد حقيقة لا مراء فيها وهي أن الروح الصليبية التي بثها الرهبان قديما والتي ظهرت فى صورة مسلحة باغية لا تعرف رحمة ولا قانوناً فى الحملات الصليبية هذه الروح ما زالت تسيطر على التفكير الأوربي والامريكى بل على تفكير غير المسلمين بوجه عام نحو المسلمين ، وما زالت هى المحرك الأول لكل نشاط عدواني على المسلمين فى كل مكان .

ولايمان أوربا فى العصور الوسطى بأن الاسلام يمثل قوة مناوئة لها عملت على النيل من هذا الدين ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، فبعد طرد الصليبيين انتقل الصراع إلى الفردوس المفقود (الاندلس) وسعت أوربا للقضاء على الوجود الاسلامي في شبه جزيرة أسبانيا ، ومما لا جدال فيه أن تمزق المسلمين وتفرقهم وتكوين الممالك العديدة والمتحاربة فى بعض الاحيان كان من الاسباب التي عجلت بطرد المسلمين من الاندلس ، ومع هذا لا يستطيع مؤرخ منصف أن ينكر أن لاوروبا ضلعاً فى ارتكاب تلك الجريمة البشعة فى تاريخ البشرية التي لا تختلف عنها جريمة القرن العشرين جريمة طرد شعب فلسطين من دياره واحلال العصابات اليهودية محله .

إن أوربا التي طردت المسلمين من الاندلس هى التي طردت – بالتعاون مع الاستعمار الامريكى – شعب فلسطين من وطنه ومكنت لليهود أعداء أوربا من أرض السلام .

ولكن التاريخ سيعيد نفسه وسينتصر الاسلام في فلسطين كما انتصر من قبل على يد صلاح الدين، ومهما تعاونت قوي الشر والبغى فستبوء بالخزي والبوار فالاسلام الذى غير وجه التاريخ وصمد في كل محنة سينتصر باذن الله في هذا العصر ويأخذ بيد الانسان المكروب التائه فى غياهب العنصرية والحضارة المادية الى طريق الحق طريق الله .
(ذالكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال) .

والحمد لله أولا وأخيراً : ؟

فهـــرس